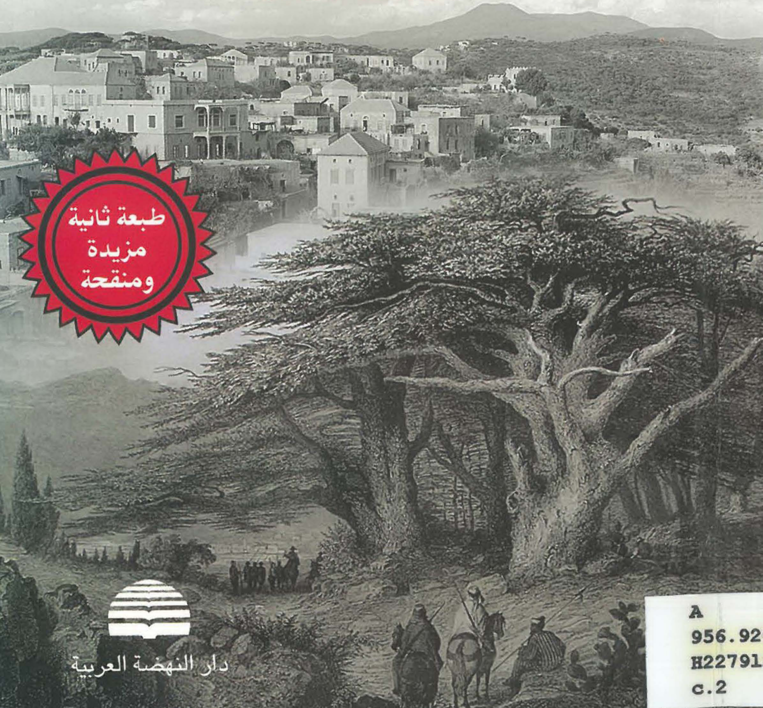
د. سوزي حمود

لبنان
في العصر الوسيط

منذ العهد الراشدي إلى نهاية عهد المماليك

(13 - 922 هـ / 634 - 1516 م)



دار النهضة العربية

لبـــنان

في العصر الوسيط

منذ العهد الراشدي إلى نهاية عهد المماليك "

(13 ـ 922 هـ / 634 ـ 1516 م)

الدكتورة سوزي حمود

أستاذة التاريخ الاسلامي في الجامعة اللبنانية

طبعة ثانية ـ مزيدة ومنقحة



دار النهضة العربية

رقم الكتاب : 19148
اسم الكتاب : لبنان في العصر الوسيط
المؤلف : د. سوزي حمود
الموضوع : تاريخ
رقم الطبعة :الثانية
سنة للطبع : 1431 هـ ـ 2010 م.
القياس : 17 × 24
عدد الصفحات : 142

منشورات : دار النهضة العربية
بيروت - لبنان

الزيدانية - بناية كريدية- الطابق الثاني
تلفون : 736093 / 743167 / 743166 1 961 +
فاكس : 736071 / 735295 1 961 +
ص.ب 0749- 11 رياض الصلح
بيروت 072060 11 - لبنان
بريد الكتروني : e-mail:darnahda@cyberia.net.lb

ISBN 978-9953-537-87-0

إهداء

إلى كل لبناني آمن بوطنه الصغير

وطناً نهائياً له ولأبنائه وأحفاده،

وطناً نهائياً، حراً سيداً مستقلاً،

لا يمكن فصله عن الوطن العربي الكبير...

إلى الوطن الصغير بمختلف طوائفه ومذاهبه التي ضاقت بها العاصمة بيروت وضواحيها وهي تطل على السهل والجبل

والشمال والجنوب...

إلى لبنـــــــــان....

المقدمة

إن البحث في التاريخ الوسيط (13 ـ 922هـ/ 634 ـ 1516م) للبقعة الجغرافية التي تحمل اليوم اسم الجمهورية اللبنانية، لا يعني أن هذه الجمهورية بحدودها مع قطرين شقيقين هما سوريا وفلسطين، وبمساحتها الصغيرة التي لا تتعدى الـ 10452 كيلو متراً مربعاً، كانت موجودة في هذا العصر الوسيط الذي امتد طيلة تسعة قرون متتالية. إن هذه الجمهورية اللبنانية ولدت في 23 أيار 1926، لتحل مكان دولة لبنان الكبير التي أنشأها الانتداب الفرنسي في أول ايلول 1920. وهذا يعني أن الكيان السياسي اللبناني هذا، لا يزيد تاريخه عن تسع وثمانين سنة، وهي حافلة بالأحداث التاريخية التي تتطلب مجلدات لتدوينها، لأنه كيان حديث العهد في التاريخ، مهد له كيان متصرفية جبل لبنان التي ولدت صيغتها بحدودها وتفاصيلها كحل لمشكلة الأقلية المسيحية، بموجب بروتوكول سنة 1861 ثم سنة 1864 الذي أعطى لجبل لبنان بعداً إدارياً وسياسياً، حينما منح بعض الاستقلال الذاتي في حدود معينة. كما مهدت لها اتفاقية سايكس ـ بيكو سنة 1916 التي تقاسم المشرق العربي بموجبها كل من فرنسا وبريطانيا بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى سنة 1918.

وبذلك قامت دولة لبنان الكبير من الناقورة جنوباً إلى النهر الكبير الجنوبي شمالاً، ومن المنحدر الشرقي لسلسلة الجبال الشرقية شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً. وتبلغ حدوده خمسمائة وسبعين كيلومتراً، حيث يطل على البحر المتوسط بواجهة طولها مئتان وعشرة كيلومترات تمثل الساحل اللبناني. فقد ضمت إلى جبل لبنان، المدن الساحلية صور وصيدا وبيروت وطرابلس لتشكل منافذه الطبيعية الضرورية لحياته الاقتصادية.

كما ضمت إليه المناطق الداخلية: سهول عكار في الشمال، والبقاع وبعلبك في الشرق، وحاصبيا وراشيا ومرجعيون في الجنوب، لأنه بدونها يصبح سلسلة من الجبال والأودية الضيقة، تعجز عن توفير مقومات العيش لسكانها. وهذا يعني أن جبل لبنان ما كان ليستمر ككيان سياسي مستقل دون الأطراف التي ضمت إليه، لأنه سيبقى مجرد جزيرة مسيحية أغلبيتها من الموارنة وعاجزة عن توفير مقومات الحياة لأبنائها الذين لن يجدوا سبيلاً أمامهم سوى الهجرة.

وهذه البقعة الجغرافية الجديدة التي أصبحت دولة لبنان الكبير، ثم الجمهورية اللبنانية، وهي تحمل اسم لبنان، اي جبل لبنان، وتشكل المحافظات اللبنانية اليوم، سواء في بيروت أو الجبل والبقاع والشمال والجنوب، كانت موجودة في العصر الوسيط، دون أن تحمل اسم لبنان. وحده الجبل حمل اسم لبنان، ليس في العصر الوسيط فحسب، بل منذ أقدم العصور التاريخية حتى يومنا هذا. وجبل لبنان، وليس لبنان بحدوده الحالية، هو الذي ورد ذكره في النصوص العبرية للتوراة، وهو يرتقي في الأصل إلى اللغات السامية القديمة، فالآشوريون دعوه «لَبْنانو»، والعبرانيون «لَبَنون»، والآراميون «لِبْنون». ومنه اشتق اليونان والرومان اسمه «ليبانوس». أما معناه فالجبل الأبيض، ولعل ذلك يعود لاكتساء قممه الدائم بالثلوج، لأنها كما يقال، كانت أعلى منها اليوم، بمائة وخمسين متراً[1].

ومن الناحية الجغرافية، كان اسم «لبنان» يطلق، منذ القدم، للدلالة على سلسلة الجبال المرتفعة الممتدة شمال فلسطين، دون أن يكون لهذه التسمية طابعها الإداري الخاص. ففي أثناء الحكم الاغريقي «اليوناني» (332 ـ 61 ق.م) ثم الحكم الروماني (61 ق.م ـ 634م)، كان اسم «لبنان» يطلق على سلسلة جبال لبنان الغربية الممتدة بموازاة البحر المتوسط بطول مئة وخمسين كيلومتراً، بينما أطلق اسم «لبنان الداخل» على سلسلة جبال لبنان الشرقية التي تليها على بعد حوالى ثلاثين كيلومتراً في الداخل. وكان سهل البقاع الفاصل بين السلسلتين يمثل القسم الجنوبي من سوريا المجوفة.

ومع الفتح العربي الاسلامي، استمرت تسمية لبنان، ليشير إلى الجبل الذي

1 ـ سعيد الصباغ: جغرافية سورية العمومية المفصلة، ص 13.

اعتبره العرب ضمن المنطقة التي أطلقوا عليها اسم بلاد الشام، وتمتد هذه المنطقة من جبال طوروس شمالاً إلى صحراء سيناء ومشارف شبه الجزيرة العربية جنوباً، ومن نهر الفرات شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً. وبلاد الشام، بمفهومنا الحاضر، تشمل سوريا ولبنان وفلسطين والأردن، وساحلها هو الساحل السوري ـ اللبناني ـ الفلسطيني.

ومع الحروب الصليبية التي عاشتها بلاد الشام، طيلة قرنين (489 ـ 690هـ/ 1096 ـ 1291م)، اعتبر المؤرخون الفرنجة لبنان «جبل من بلاد الشام من جند حمص» يضم الأقسام الشمالية المرتفعة من سلسلة جبال لبنان الغربية التي تطل على الساحل بين مدينتي طرابلس وجبيل، ووصفوا هذه المرتفعات الشمالية بأنها موطن الموارنة. وقد أكد المؤرخون الموارنة ذلك، معتبرين جبل لبنان يضم ثلاث مناطق فقط، هي: بلاد بشري وبلاد البترون وبلاد جبيل.

ومهما تكن البقعة الجغرافية التي حملت اسم «جبل لبنان»، فإن الأقسام الثلاثة لسلسلة جبال لبنان الغربية: الشمالية (من جبل لبنان إلى جبل عكار)، الوسطى (جبل كسروان) و (جبل الشوف) و الجنوبية (جبل عامل)، كانت تمثل أجزاء من مناطق إدارية مختلفة، منذ الفتح العربي الاسلامي. ولم يصبح اسم لبنان ذا طابع إداري خاص به، ومعترف به دولياً على الخريطة السياسية، إلا مع انشاء متصرفية جبل لبنان سنة 1861، ليتحول هذا الجبل اللبناني الصغير إلى دولة لبنان الكبير في أول أيلول 1920، ثم الجمهورية اللبنانية في 23 أيار 1926، وهي أول جمهورية في الوطن العربي.

اختلف اللبنانيون حول هوية هذه الدولة اللبنانية الجديدة، سواء بين عامة الناس أو السياسيين أو المؤرخين، بعدما ضمت هذه الدولة طوائف دينية ومذهبية مختلفة ومتعددة. وانعكس ذلك في الكتب المدرسية التي حملت اسم لبنان، قبل اعلان هذه الدولة وبعده. ويعتبر كتاب «تاريخ لبنان» الذي وضعه لحد صعب خاطر سنة 1914، أول كتاب مدرسي يحمل اسم لبنان. ونشر يوسف السودا كتاب «في سبيل لبنان» سنة 1918 لغاية سياسية، ومع ذلك اعتمدته بعض المدارس، بعدما أعيد طبعه سنة 1924 ليضم خريطة واحدة لدولة لبنان الكبير. وسنة 1924، ترجم إلى العربية كتاب «مختصر تاريخ سوريا ولبنان» الذي وضعه أحد الآباء اليسوعيين، كما وضع الأب رينيه موترد كتاباً شبيهاً يحمل ايضاً عنوان «مختصر تاريخ سوريا ولبنان»، في حين ظهر كتاب «تاريخ

سوريا ولبنان وفلسطين المصور للأب فردينانيد توتل سنة 1934.

ثم ظهرت الكتب المدرسية التي وضعها مؤلفون لبنانيون، مثل «مختصر سوريا ولبنان» لأديب فرحات سنة 1924، و «مختصر تاريخ سوريا ولبنان» لعيسى ميخايل سابا سنة 1927، و«تاريخ سوريا ولبنان» لحنا نمر سنة 1930، و«سوريا ولبنان» لعمر أبو النصر.

وبدأت مرحلة جديدة مع ظهور كتاب «تاريخ لبنان الموجز» لطلبة الشهادة الابتدائية الذي وضعه فؤاد افرام البستاني وأسد رستم سنة 1938. ثم كتاب «تاريخ سوريا ولبنان المصور» الذي وضعه زكي النقاش وعمر فروخ سنة 1944، ويختص بطلبة شهادة البكالوريا. والخلاف واضح جداً في الخلفية التاريخية لهذين الكتابين.

أصبح من الواجب الوطني، منذ اعلان استقلال لبنان في 22 تشرين الثاني 1943، والجلاء الأجنبي عنه في 31 كانون الأول 1945، أن يكون لهذا الكيان الحديث العهد في التاريخ، تاريخ خاص أسوة بسائر الكيانات السياسية التي قامت في الوطن العربي، سواء بعد الحرب العالمية الأولى، أو بعد الحرب العالمية الثانية. وفي هذا الاطار، بدأ الاتجاه نحو وضع كتاب تاريخ للبنان يوافق عليه اللبنانيون في مختلف اتجاهاتهم، وبدأت بعض معالم هذا الاتجاه تتبلور، بعد أحداث ثورة 1958، في سلاسل كتب التاريخ العديدة التي ظهرت مثل «سلسلة المصور في تاريخ لبنان» تأليف شفيق جحا ومنير البعلبكي وبهيج عثمان، و«سلسلة تاريخ لبنان+ تأليف نجيب مخول، دون أن تفرض وزارة التربية كتاباً موحداً في تاريخ لبنان، يتفق حوله جميع اللبنانيين. وكذلك في الكتب غير المدرسية التي وضعها بعض المؤرخين المسيحيين، دون أن تشكل كتاباً موحداً لجميع اللبنانيين مسلمين ومسيحيين يحمل اسم لبنان، فوضع فيليب طرازي كتاب «أصدق ما كان في تاريخ لبنان» سنة 1948، ووضع فيليب حتي باللغة الانكليزية كتاب «لبنان في التاريخ» سنة 1956، ونقله أنيس فريحة إلى العربية سنة 1959. كما وضع يوسف مزهر كتاب «تاريخ لبنان العام» سنة 1956، في حين وضعت لجنة من الأدباء كتاب «لبنان مباحث علمية واجتماعية» في جزءين سنتي 1969 و 1970، ثم أصدر جواد بولس كتاب «تاريخ لبنان» سنة 1972، وكمال الصليبي «منطلق تاريخ لبنان» سنة 1979.

لذلك، فإن اللبنانيين، بحاجة إلى كتاب تاريخ عن وطنهم الصغير لبنان، كتاب موحد لمختلف الطوائف والمذاهب التي يتشكل منها هذا الوطن، وبخاصة بعد توقيع اتفاق الطائف سنة 1989 الذي اعترفت بموجبه جمع الطوائف اللبنانية، بكيان لبنان وحدوده وطناً نهائياً لجميع أبنائه، حراً سيداً مستقلاً، لا يمكن فصله عن محيطه العربي.

ومن هذا المنطلق فإن تاريخ لبنان الوسيط، هو تاريخ جبل لبنان وبيروت والبقاع والشمال والجنوب، دون اغفال الاشارة لمن كانت هذه المناطق الجغرافية الخمس، تتبع في هذا العصر الوسيط، والدور الذي قامت به أو الأحداث التي عاشتها، منذ بدء الفتح العربي الإسلامي سنة 13هـ/ 634م، حتى سقوط دولة المماليك في بلاد الشام سنة 922هـ/ 1516م، حيث لم يكن تاريخ هذه المناطق، يتعلق بكيان سياسي أو إداري واحد، كانت موحدة بداخله تحت اسم لبنان.

ومهما تعمق الباحث ونبش في تاريخ هذه المناطق الخمس في العصر الوسيط، فإنه لن يعثر إلا على النذر القليل، على الأقل في الحقبة الأولى من هذا العصر، حيث لم تتطرق المصادر العربية والأجنبية كثيراً لتاريخ هذه المناطق في تلك الحقبة التي استمرت أكثر من أربعة قرون ونصف القرن، وتمتد منذ بدء الفتح العربي الإسلامي لتلك المناطق سنة 13هـ/ 634م حتى بدء مجيء الفرنج من غرب أوروبا مع الحملة الصليبية الأولى سنة 489هـ/ 1096م. ويمكن حصر هذه الحقبة في عناوين ثلاثة، تمثل ثلاثة عهود مرت بها تلك المناطق، وهي:

1 ـ العهد الراشدي ونتائجه (13 ـ 41هـ/ 634 ـ 661م).

2 ـ العهد الأموي (41 ـ 132هـ/ 661 ـ 750م).

3 ـ العهد العباسي (132 ـ 360هـ/ 750 ـ 968م).

4 ـ العهد الفاطمي (360 ـ 503هـ/ 970 ـ 1109م).

ولكي يكتمل تاريخ هذه المناطق في العصر الوسيط، يتوجب ذكر عهدين أيضاً، ليضم هذا التاريخ ستة عهود، وهما:

5 ـ عهد الزنكيين والأيوبيين والفرنج (503 ـ 690هـ/ 1109 ـ 1291م).

6 ـ عهد المماليك (690 ـ 922هـ/ 1291 ـ 1516م).

وكثرت الكتب التي وضعت حول لبنان الحديث والمعاصر، بينما ندرت الكتب حول لبنان الوسيط. لذلك تجدر الاشارة إلى بعض المراجع التي تناولت لبنان في العصر الوسيط، بهدف تسهيل دراسة المادة التي تحمل هذا العنوان في قسم التاريخ بكلية الآداب في الجامعة اللبنانية. وهذه المراجع وضعها بعض أساتذة هذه الجامعة، في دراسة أكاديمية، وفي طليعتهم محمد علي مكي الذي وضع «لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني» سنة 1977، وأحمد حطيط الذي وضع «تاريخ لبنان الوسيط» سنة 1986، والياس القطار الذي وضع «لبنان في القرون الوسطى ـ من الفتح العربي الإسلامي إلى الاحتلال الفرنجي» سنة 2007، وطارق قاسم الذي وضع «تاريخ لبنان الوسيط» سنة 2007 أيضاً، وهذا ما دفعني إلى وضع هذا الكتاب «لبنان في العصر الوسيط منذ العهد الراشدي إلى نهاية عهد المماليك»، عله يضيف شيئاً إلى الكتب الأربعة التي سبقته، وهي تمثل محاولة أكاديمية جديدة في دراسة تاريخ لبنان الوسيط.

بيروت في 13 نيسان 2009

الفصل الأول

فتح لبنان في العهد الراشدي ونتائجه

(13 ـ 41هـ/ 634 ـ 661م)

بعد سبعة قرون من الحكم الروماني لبيروت، كانت شبه الجزيرة العربية تشهد حدثاً تاريخياً هو تجميع القبائل العربية تحت راية الإسلام، ثم نشر هذه الراية في العراق وفارس ومصر والشام. فكان هذا الحدث التاريخي نقطة تحول عظيمة في تاريخ لبنان وسائر المدن التي دخلت تحت راية الإسلام.

1 ـ معركة اليرموك وفتح دمشق (13هـ/ 634م)

بدأ الجيش العربي الإسلامي فتوحاته خارج شبه الجزيرة العربية زمن الخليفة الراشدي الأول أبي بكر الصديق سنة 13هـ/ 634م. وفي هذا الوقت كانت بيروت من المدن اللبنانية الساحلية التي تتبع إقليم دمشق، مثل مدن طرابلس وعرقة وجبيل وصيدا[1].

---

1 ـ عصام شبارو: تاريخ بيروت، ص 37.

بعث أبو بكر الصديق، في صفر 13هـ/ 634م، أربعة ألوية لفتح بلاد الشام، الأول نحو دمشق بقيادة يزيد بن أبي سفيان ومعه سهيل بن عمرو ثم أرسل وراءه أخوه معاوية بن أبي سفيان، والثاني نحو الأردن بقيادة شرحبيل بن حسنة، والثالث اتجه نحو حمص بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، والرابع نحو فلسطين بقيادة عمرو بن العاص. وتجمعت الألوية الأربعة التي لا تتعدى الأربعة وعشرين ألفاً في قوة واحدة بقيادة أبي عبيدة بن الجراح لتواجه الجيش البيزنطي الذي يفوق عدده المئة وعشرين ألفاً بقيادة الامبراطور هرقل[1].

أدرك أبو بكر الصديق قوة الجيش البيزنطي، فكتب إلى خالد بن الوليد بالعراق، يأمره بالمسير إلى الشام، وتسلم قيادة جميع الألوية، مكان أبي عبيدة بن الجراح، لقتال البيزنطيين. فسار خالد من العراق في ربيع الأول 13هـ/ 634م، في تسعة آلاف وخمسمائة، واخترق الصحراء في ثمانية أيام، عبر طريق وعرة لم يسلكها أحد قبله[2]، ثم انضم إليه عكرمة بن أبي جهل في تسعة آلاف، عند مشارف الشام، فأصبحت قوة العرب المسلمين تناهز الأربعين ألفاً، حقق معها خالد بن الوليد نصراً حاسماً على الجيش البيزنطي في معركة اليرموك في جمادي الثاني 13هـ/ 634م. وأثناء المعركة، توفي الخليفة أبو بكر الصديق، فخلفه عمر بن الخطاب الذي بعث إلى خالد بن الوليد بكتاب عزله وتولية أبي عبيدة بن الجراح إمارة الجيوش في بلاد الشام، فأخفى خالد الكتاب، حتى تحقق النصر[3]، ليسلم القيادة إلى أبي عبيدة بن الجراح، ويقاتل تحت امرته في سبيل الله، وليس من أجل الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب، مؤكداً

---

1 ـ البلاذري: فتوح البلدان، ج 1 ص 128، 129.
الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج 4 ص 31، 32.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 2 ص 406.
2 ـ البلاذري: فتوح البلدان، ج 1 ص 131 ـ 133.
اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج 2 ص 134.
3 ـ عصام شبارو: الدولة العربية الاسلامية الأولى، ص 280.

بالفعل أنه سيف الله المسلول.

فتحت معركة اليرموك الطريق أمام الجيش الغربي الإسلامي، نحو دمشق التي حاصرها أبو عبيدة بن الجراح سبعين ليلة، وقيل أربعة أشهر، وكذلك ستة أشهر، حيث ظهرت بطولة خالد بن الوليد الذي دخل المدينة عنوة بالسيف، من الباب الشرقي وهو أحصن الأبواب، فأذعن البيزنطيون لأبي عبيدة بن الجراح وطلبوا الصلح[1].

2 ـ فتح البقاع على يد خالد بن الوليد (15هـ/ 636م)

عهد أبو عبيدة بن الجراح إلى خالد بن الوليد بفتح البقاع، ففتحه بالسيف سنة 15هـ/ 636م[2]، ما سهل فتح مدينة بعلبك التي كتب إلى أهلها عهداً فيه[3]:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب أمان لفلان بن فلان، وأهل بعلبك، رومها وفرسها وعربها، على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ودورهم داخل المدينة وخارجها. وللروم أن يرعوا مسرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلاً، ولا ينزلوا قرية عامرة، فإذا مضى شهر ربيع وجمادي الأولى ساروا إلى حيث شاؤوا، ومن أسلم منهم فله مالنا وعليه ما علينا. ولتجارهم أن يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها وعلى من أقام منهم الجزية والخراج.

وشهد الله وكفى بالله شهيداً

---

1 ـ البلاذري: فتوح البلدان، ج 1 ص 145.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 2 ص 428.
ابن كثير: البداية والنهاية،ج 7 ص 23.
2 ـ عصام شبارو: الدولة العربية الاسلامية الأولى، ص 308.
3 ـ البلاذري: فتوح البلدان، ج 1، ص130.

3 ـ فتح المدن اللبنانية الساحلية على يد يزيد بن أبي سفيان

(14 ـ 17هـ/ 635 ـ 638م)

عهد أبو عبيدة بن الجراح إلى يزيد بن أبي سفيان بفتح بيروت والمدن الساحلية، بعد أن استخلفه على دمشق. وكان معاوية بن أبي سفيان قد اشترك مع أخيه يزيد في فتح السواحل. لم يحدد البلاذري تاريخ فتح بيروت، وما يذكره أن «يزيد أتى بعد فتح مدينة دمشق وصيدا وعرقة وجبيل وبيروت وهي سواحل وعلى مقدمته أخوه معاوية ففتحها فتحاً يسيراً وجلا كثير من أهلها»[1]. أما ابن الأثير فيحدد تاريخ فتح بيروت في سنة 13هـ/ 634م[2]، في خلافة عمر بن الخطاب، ويتفق مع البلاذري على أن فتح مدينة بيروت والمدن الساحلية تم بعد فتح دمشق. في حين أن اليعقوبي يذكر أن فتح دمشق تم في رجب سنة 14/ 635[3].

إن فتح المدن اللبنانية الساحلية، باستثناء مدينة طرابلس التي دعمها الأسطول البيزنطي ولم يفتحها معاوية بن أبي سفيان إلا في عهد الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان[4]، قد تم الفراغ منه في أواخر سنة 16هـ/ 637م، أو مطلع سنة 17هـ/ 638م. ثم تقررت الجزية[5] على المدن الساحلية، بيروت وصور وعسقلان وقيسارية، وذلك في نفس العام. ومما يجدر ذكره أن ابن عساكر لا يذكر شيئاً عن فتح بيروت، في الوقت الذي يتحدث فيه عن فتح العرب المسلمين لطرابلس والمدن الساحلية الأخرى[6]

---

1 ـ البلاذري: فتوح البلدان، ج 1، ص 150.
2 ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 2، ص 431.
3 ـ اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج 2، 140.
4 ـ عصام شبارو: تاريخ الدولة العربية الاسلامية الأولى، ص 314.
5 ـ صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص 13.
6 ـ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج 6، ص 184.

ولعل عدم أهمية بيروت، وتواضع بيوتها وصغرها وقلة عدد سكانها عندما دخلها العرب المسلمون، جعل المؤرخين لا يعيرونها إهتماماً، أيام الفتوحات الإسلامية الأولى، فاكتنف تاريخها الغموض في تلك الفترة، وبالتالي لم تصلنا معلومات دقيقة عنها وعن عدد سكانها وعن كيفية فتحها وتاريخها. ومما يذكر أن دخول المسلمين إلى مدينة بيروت كان أمراً سهلاً، ولم تكن بيروت ذات شأن أو أهمية من حيث السكان والعمران، فقد كانت بيوتها قليلة ومتواضعة، منذ أن ضربها زلزال سنة 560م، أي مثل قرية صغيرة.

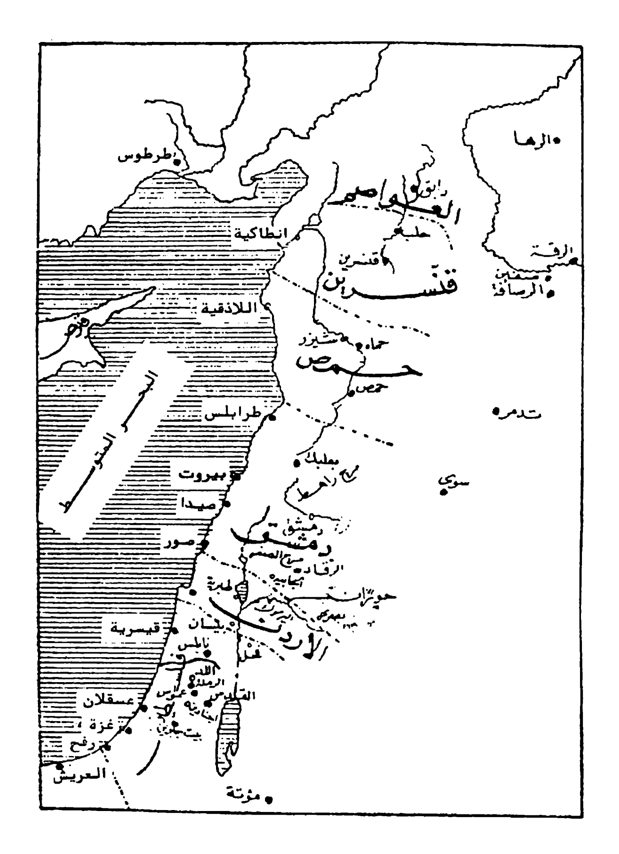
4 ـ مؤتمر الجابية (17هـ/ 638م)

زار الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب البلدان المفتوحة، وعقد مع قواده مؤتمر الجابية سنة 17هـ/ 638م، حيث قسم الشام إلى أربع مناطق عسكرية (أجناد)، هي دمشق وحمص والأردن وفلسطين، وأقام عليها عمالاً، وبذلك يكون قد طبق التنظيم البيزنطي، وأصبحت دمشق حاضرة بلاد الشام كلها.

وفي هذا المؤتمر الذي عقد في الجابية، على مسيرة يوم جنوبي دمشق، ودام ثلاثة أسابيع، ثبت أبا عبيدة بن الجراح في مركز القيادة العليا عوضاً عن خالد بن الوليد، وعين عاملاً على جميع هذه المناطق المفتوحة[1]. وتقررت الجزية على أهل الذمة من اليهود والنصارى المقيمين في المدن اللبنانية مقابل تمتعهم بحماية المسلمين لهم، حيث كانوا يعفون من الخدمة العسكرية، في حين كان المسلمون يدفعون الزكاة ولا يعفون من الخدمة العسكرية. وهذا ما يدل على عدل المسلمين وتسامحهم مع أهل الذمة في البلدان المفتوحة.

---

4 ـ فيليب حتي: لبنان في التاريخ، ص 294.



تقسيم بلاد الشام في مؤتمر الجابية[1]

لبنان يتبع جند دمشق

1 ـ عصام شبارو: الدولة العربية الاسلامية الأولى، ص 331.

وهكذا دخلت معظم المناطق اللبنانية منذ أن افتتحها المسلمون، في نطاق جند دمشق[1]، الذي كان يضم: بيروت وطرابلس وعرقة وصيدا وصور والبقاع وحصن الصرفند، إضافة إلى عزنون وبصرى عمان والجابية والحولة[2].

5 ـ طاعون عمواس (18هـ/ 639م)

بدأ الطاعون في عمواس، قرب بيت المقدس، سنة 18هـ/ 639م، فسمي طاعون عمواس[3]، قبل أن ينتشر في بلاد الشام. ويعود انتشار هذا الوباء إلى المعارك التي انتصر فيها العرب المسلمون في بلاد الشام، حيث بقيت جثث عشرات الآلاف من البيزنطيين في ميادين القتال من غير أن تدفن، لأن جيوشهم البيزنطية المنهزمة لاذت بالفرار دون أن تجد الوقت الكافي لدفن القتلى، بينما كان المسلمون يدفنون شهداءهم[4].

استمر الطاعون شهراً، فأدى إلى وفاة خمسة وعشرين ألفاً وقيل ثلاثين ألفاً من المسلمين، بينهم جماعة من كبار القادة مثل أبو عبيدة بن الجراح الذي دفن في «عمتا» وهي قرية في غور بيسان، وشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبي سفيان، ولا نعلم مدى تضرر المدن اللبنانية بهذا الوباء[5].

وبعد انحسار الطاعون، توجه الخليفة عمر بن الخطاب من المدينة المنورة، نحو بلاد الشام، فلما وصلها، عين عبد الله بن قيس على السواحل ومعاوية بن أبي سفيان على جند دمشق وخراجها. ثم قسم مواريث الذين ماتوا بعد أن حار أمراء الجند فيما لديهم

---

1 ـ صفي الدين: مراصد الاطلاع، ج 1، ص 240.
المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 153 و 190.
الاصطخري: المسالك والممالك، ص 65.
2 ـ اليعقوبي: البلدان، ص 105.
المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 153.
3 ـ البلاذري: فتوح البلدان، ج 1 ص 165.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 2 ص 558.
4 ـ عصام شبارو: الدولة العربية الاسلامية الأولى، ص 315.
5 ـ عصام شبارو: تاريخ بيروت، ص 39.

من المواريث بسبب كثرة الشهداء في المعارك[1].

6 ـ الأسطول البيزنطي يحتل المدن اللبنانية الساحلية (22 ـ 24هـ/ 643 ـ 645م)

قام الأسطول البيزنطي بغارة انتقامية ضد المسلمين سنة 22 هـ/ 643م، وكانت مدينة طرابلس لا تزال تحت سيطرته ولم يفتحها المسلمون، فاحتل بيروت والمدن الساحلية، وأعاد الروم إلى السواحل اللبنانية من جديد، وأصبح خطره يهدد المسلمين في كل وقت. وعلى الفور أخذ والي الشام معاوية بن أبي سفيان، يستعد لاسترداد السواحل البنانية.

7 ـ والي الشام معاوية بن أبي سفيان يسترد المدن اللبنانية الساحلية ويفتح جزيرة قبرص (24 ـ 28هـ/ 645 ـ 648م)

قام والي الشام معاوية بن أبي سفيان بهجوم بري وبحري سنة 24هـ/ 645م، لاسترداد المدن اللبنانية الساحلية التي احتلها البيزنطيون في نهاية عهد الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب، فأعاد فتحها في مطلع عهد الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان[2]، وهكذا غادرت الحامية البيزنطية بيروت والمدن الأخرى. ولم يكتف معاوية بن أبي سفيان بذلك، بل فتح مدينة طرابلس لأول مرة[3]، وأدرك ضرورة تحويل الساحل اللبناني مركزاً للأسطول البحري الإسلامي من جهة، وإلى جلب السكان ليسكنوا فيها إلى جانب رجال الحامية البحرية من جهة ثانية. لأن الدفاع عن بيروت والساحل لا يجدي ما لم يكن الساحل اللبناني مشحوناً بالسكان والحاميات الكثيفة[4].

وقد أذن الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان لوالي الشام معاوية بن أبي

---

1 ـ ابن كثير: البداية والنهاية، ج 7 ص 79.
2 ـ عصام شبارو: الدولة العربية الاسلامية الأولى، ص 343.
3 ـ البلاذري: فتوح البلدان، ج 1 ص 150 ـ 152.
4 ـ عصام شبارو: تاريخ بيروت، ص 309.

سفيان بركوب البحر، بعدما نهاه الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب عن ذلك، لادراكه أن الأوان لم يحن لمواجهة البيزنطيين في البحر.

تحول الساحل اللبناني إلى قاعدة بحرية لمواجهة بيزنطة في البحر المتوسط، فركب معاوية بن أبي سفيان في جيش كبير من هذا الساحل، تحمله المراكب البحرية وبصحبته زوجته أم حرام بنت ملحان وأخته بنت قرظة وعبادة بن الصامت[1]، وتوجه نحو جزيرة قبرص سنة 28هـ/ 648م، فكان ذلك أول غزو بحري للمسلمين ضد البيزنطيين[2]، ففتح الجزيرة وصالحها على سبعة آلاف دينار سنوياً.

8 ـ انتصار الاسطولان اللبناني والمصري في ذات الصواري (31هـ/ 651م)

وتكرست قوة البحرية العربية الإسلامية، بالنصر الكبير الذي حققه الأسطولان اللبناني والمصري بقيادة عامل مصر عبد الله بن سعد على الأسطول البيزنطي الذي تألف من خمسمائة مركب بقيادة الامبراطور قنسطانز الثاني، وذلك في معركة ذات الصواري سنة 31هـ/ 651م[3]. وهي المعركة التي فتحت أمام المسلمين، باب السيطرة على البحر المتوسط. وفي هذه المعركة، استعان معاوية بن أبي سفيان بعدد من الأقباط، مستفيداً من خبرتهم الملاحية، فيما يمكن تسميته تقنية البحر أكثر مما هو في المجال العسكري، في وقت لم يكن يسمح فيه لأحد من غير العرب بالانخراط في الجيش. وبذلك دخلت قلة من الأقباط إلى لبنان.

9 ـ تكاثر عدد المسلمين في المدن اللبنانية الساحلية والبقاع

منذ الفتح الإسلامي أخذ المسلمون يتكاثرون في المدن اللبنانية، والروم تقل فيها شيئاً فشيئاً، حتى صار أكثر أهلها من المسلمين[4]. وكذلك في بعلبك في البقاع.

---

1 ـ ابن كثير: البداية والنهاية، ج 7 ص 153.

2 ـ البلاذري: فتوح البلدان، ج 1 ص 181.

3 ـ ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأفريقية، ص 255.

4 ـ صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص 13.

وكانت المدن الساحلية، قد تعاقبت عليها المدنيات المختلفة التي تأثرت بها، من كنعانية وفينيقية وفرعونية وعبرية وفارسية ويونانية ورومانية، وكان بعض أهل هذه المدن قد شارك في هذه المدنيات. وعندما فتح العرب المسلمون المدن اللبنانية نشروا لغتهم وتعاليم الإسلام بها، فأخذ أهلها يتعلمون اللغة العربية، ويتكلمون بها مع لغتهم الآرامية أو اليونانية. كذلك أخذ الإسلام يحل فيها محل النصرانية واليهودية، ودخل الكثير من أهلها في الإسلام. وكان الخليفة عمر بن الخطاب أول من بعث إليهم من يعلمهم الدين الجديد، فتفرق «معاذ وعبادة وأبو الدرداء»[1]، في الشام، يعلمون أهلها، وتخرَّج على أيديهم كثير من التابعين.

لقد هزم العرب المسلمون أكبر دولتين في ذلك الوقت، بيزنطة وفارس، محققين انتصاراً حاسماً في العراق والشام. وقد اعتمدت هاتان الدولتان على القبائل العربية النصرانية في محاربة العرب المسلمين، الذين استمالوا أفراد هذه القبائل إليهم باعتبارهم عرب مثلهم، فانضم بعضهم بدافع الغيرة والعروبة ودخل البعض الآخر في الإسلام، بعد أن عانوا جميعاً من المظالم، وبعد أن لمسوا فقدان الروح الحربية عند الفرس والبيزنطيين، في حين كان العرب المسلمون يجاهدون في سبيل الله لا يبالون بالموت طمعاً في نعيم الحياة الآخرة[2]، ويعاملون سكان البلدان المفتوحة من أهل الذمة بالعدل والتسامح وشعار «لا إكراه في الدين».

1 ـ أحمد أمين: فجر الإسلام، ص 188.

2 ـ عصام شبارو: تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى، ص 316.

الفصل الثاني

لبنان في العهد الأموي

(41 ـ 132هـ/ 661 ـ 750م)

بمقتل رابع الخلفاء الراشدين الإمام علي بن أبي طالب، سنة 41هـ/ 661م، وتخلي ابنه الحسن عن الخلافة، استطاع عامل الشام، معاوية بن أبي سفيان، أن يؤسس الدولة الأموية وعاصمتها دمشق. ثم وجه عنايته إلى تحصين بيروت فتحولت إلى مركز الأسطول البحري الإسلامي[1].

1 ـ توطين قوم من عرب العراق «الفرس» في ساحل لبنان

ما كاد معاوية يظفر بالخلافة سنة 41هـ/ 661م، حتى عمل على تدعيم الدفاع عن السواحل. ومنذ أن كان عاملاً على الشام، قبل تقلده الخلافة، شعر بالخوف من غزوات الروم، فاستدعى قوماً من عرب العراق، استعان بخبرتهم في الإدارة والأمور العسكرية، وعرف هؤلاء بالفرس على سبيل الانتماء السياسي لأن العراق خضع قبل الفتح العربي الإسلامي للحكم الفارسي الساساني، وليس لأنهم فرس في الأصل، فقد احتفظوا بأسمائهم العربية في الأماكن التي انتقلوا إليها في الساحل اللبناني. وقد سار عبد

---

1 ـ عصام شبارو: تاريخ بيروت، ص 43.

الملك بن مروان على خطى معاوية بن أبي سفيان، في وقت لم يكن يسمح فيه لأحد من غير العرب بالانخراط في الجيش، مما ينفي صفتهم الفارسية ويؤكد هويتهم العربية.

وهكذا استوطن هؤلاء القوم من عرب العراق «الفرس» في الساحل اللبناني، وتحديداً في بيروت وجبيل وصيدا. وهذا ما جعل اليعقوبي يذكر أن «جبيل وصيدا وبيروت، وأهل هذه الكور كلها قوم من الفرس نقلهم إليها معاوية بن أبي سفيان»[1].

ولعل معاوية كان يهدف من وراء حركة التبديل السكاني، في بيروت والمدن اللبنانية الساحلية، إلى تمييع الشعور القومي عند سكان هذه السواحل الموالين للبيزنطيين، وحتى لا ينتفضوا مجدداً على المسلمين، كما حدث في مدينة الاسكندرية سنة 25هـ/ 645م، وفي طرابلس التي انتفضت عليه في أول خلافته[2]، وتمكن بعض الروم من أهلها من ذبح عاملها، واحراق قطع من الأسطول العربي الراسية في مينائها[3]، لكن معاوية تمكن من القضاء على هذه الحركة. وكان ذلك من الأسباب التي حملته على نقل جماعة من عرب العراق إلى سواحل لبنان سنة 42هـ/ 662م ومن بينها بيروت وصيدا وجبيل[4]، وكذلك طرابلس[5]، لتأمين حماية هذه المدن من إغارات الأسطول البيزنطي[6]. ويبدو أن معاوية كان يسعى أيضاً إلى تمكين الدفاع البري عن السواحل، ولحراستها من غزوات «المردة» بتشجيع من أباطرة بيزنطة.

وهكذا حصن معاوية الثغور الإسلامية على الساحل اللبناني وشحنها بالمقاتلة الذين يرابطون بها، ويتولون حراستها في المناظر والأبراج والمناور، وأقطع من ينزل السواحل من المسلمين القطائع والأخائذ[7]، مستهدفاً من وراء ذلك تشجيع المسلمين على ركوب البحر، وعلى هذا النحو أصبحت سواحل الشام مبثوثة بالقلاع والأبراج،

---

1 ـ اليعقوبي: البلدان، ص 327.
2 ـ عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة صيدا، ص 62.
3 ـ جرجي يني: تاريخ سوريا، ص 378.
4 ـ اليعقوبي: كتاب البلدان، ص 327.
5 ـ المصدر نفسه، ص 337.
6 ـ زاهية قدورة: بحوث عربية، ص 90.
7 ـ البلاذري: فتوح البلدان، ج 1، ص 152.

التي كانت أشبه شيء بسور يمتد بحذاء الساحل، أو سلسلة متصلة من التحصينات التي ترابط فيها حاميات[1]، تنقسم كل منها إلى مجموعات، وكل مجموعة تتألف من مائة رجل. وكانت هذه التحصينات مزودة في أعلاها بمواقيد يشعلها الحراس والقائمون بالدفاع عن الساحل عند اقتراب سفن الأعداء منه ليلاً. وحظيت بهذه التحصينات سواحل بيروت وجبيل وطرابلس وعرقة وصيدا في لبنان، وكذلك سواحل الاسكندرية ورشيد والبرلس وتنيس ودمياط في مصر[2].

2 ـ المدن اللبنانية الساحلية
مركز الأسطول البحري العربي الإسلامي

اعتمد معاوية على المسلمين من أهل الشام، وبالذات سكان السواحل اللبنانية مثل بيروت وصيدا وصور وجبيل وطرابلس، الذين برعوا في صناعة السفن وتمرسوا في ركوب البحر ونبغوا في قيادة الأساطيل منذ أقدم العصور، بحكم تطلعهم إلى البحر واحتكاكهم التجاري بعالم البحر المتوسط القديم[3].

وكان أول عمل قام به في هذا السياق، أن عين جنادة بن أبي أمية[4] في منصب «أمير بحر الشام»، فأقام ببيروت. واتضحت أهداف البحرية الإسلامية، بالدفاع عن السواحل ضد غارات البيزنطيين، ثم بالهجوم على مراكز إعداد هذه الغارات، وخاصة في الجزر البحرية، مثل قبرص ورودس وأرواد. وعلى هذا الأساس خرج أمير البحر

---

1 ـ العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص 16.
2 ـ المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 160.
الاصطخري: مسالك الممالك، ص 65.
ابن حوقل: صورة الأرض، ص 162.
3 ـ العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص 25.
4 ـ جنادة بن أبي أمية مالك الأزدي الزهراني (ت 80هـ/ 699م): قائد بحري، صحابي، من كبار الغزاة في العصر الأموي. كان قائد غزوات البحر ايام معاوية كلها وهو ممن شهد فتح مصر ودخل جزيرة رودس فاتحاً سنة 53هـ/ 672م وتوفى بالشام.
الزركلي: الأعلام، ج 2 ص 140.

جنادة بالأسطول البحري الإسلامي من بيروت سنة 52هـ/ 671م، واستولى على جزيرة رودس، التي كانت نقطة انطلاق الأسطول البيزنطي ضد السواحل اللبنانية، واستوطنها المسلمون «وزرعوها واتخذوا بها أموالاً ومواشي، يرعونها جولها فإذا أمسوا أدخلوها الحصن... وكانوا على حذر من الروم، وهم أشد عليهم فيعترضونهم في البحر فيقطعون الطريق على سفنهم حتى أخافوهم. وكان معاوية يعاقب بين الناس فيها، ويمدهم بالعطايا والأرزاق...»[1].

ويبدو أن الأسطول البحري الإسلامي تمكن من فتح جزر أرواد وقبرص واقريطش، انطلاقاً من بيروت. لكن الأسطول العربي الإسلامي الناشيء وجد نفسه عاجزاً عن حماية السواحل الشامية كلها، فضلاً عن الجزر التي فتحها، أمام الأسطول البيزنطي الذي أخذ يقوم بغارات سريعة، وبقطع قليلة، على المدن الساحلية. لذلك اتبع العرب المسلمون سياسة بحرية جديدة، تقضي بتجميع الأسطول البحري العربي الإسلامي كله في بيروت وصور، والانسحاب من الجزر البحرية والاكتفاء بالاغارة عليها من بيروت. التي تحولت إلى مركز للأسطول البحري الإسلامي من جهة، وإلى مركز لرجال الحامية البحرية من جهة ثانية. لأن الدفاع عن بيروت والمدن الساحلية لا يكون إلا إذا كانت مشحونة بالسكان والحاميات الكثيفة، إضافة إلى قطع الأسطول البحري العربي الإسلامي[2].

3 ـ توطن الروم والموارنة في المرتفعات اللبنانية الشمالية

تعتبر صور أول مدينة لبنانية قامت فيها جالية مسيحية، ثم تلتها مدينة صيدا ومدينة بيروت، ويعود انتشار المسيحية في لبنان إلى اعتراف الامبراطور البيزنطي قسطنطين الكبير بأن دين الدولة الجديد هو المسيحية، وذلك قبل أن يشرع في بناء عاصمته الجديدة القسطنطينية التي حملت اسمه سنة 330م. وأمر أن يحول الهيكل الوثني في بعلبك إلى

---

1 ـ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج 5 ص 238.
2 ـ عصام شبارو: تاريخ بيروت، ص 45.

كنيسة، كما أمر بهدم الهيكل الوثني في أفقا على احدى قمم جبل لبنان، لكن خليفته الامبراطور يوليان (361 ـ 364م) لم يكن قد اعتنق الدين المسيحي بعد، فأعاد بناء هيكل أفقا الوثني الذي ما لبث أن أصبح مهجوراً عهد الامبراطور ثيودوسيوس الكبير (379 ـ 395م) الذي تم في عهده النصر النهائي للمسيحية، وأخذت الآلهة الوثنية، تتراجع في لبنان وسورية وفلسطين، أمام المسيحية التي أصبحت سائدة في هذه البلدان عند الفتح العربي الإسلامي لها، وكانت طائفة السريان أقدم الطوائف المسيحية.

(أ) الروم الأرثوذكس

سكنت طائفة الروم الأرثوذكس في المدن الساحلية، وكانت تحظى بعناية الامبراطور البيزنطي وعطفه، وحلت عندهم خدمة القداس البيزنطية «الاغريقية» محل الخدمة السريانية. وأطلق عليهم السريان لقب «ملكيون»، ثم أصبحت التسمية «ملكي» أو «روم ملكي» ثم «روم كاثوليك» تطلق على المسيحيين الذين تركوا الكنيسة الأرثوذكسية لينضموا إلى بابا روما نتيجة التبشير الكاثوليكي.

ومع الفتح العربي الاسلامي للمدن اللبنانية الساحلية، أخذ الطابع الاسلامي «السني» يغلب على هذه المدن، لتنكفىء طائفة الروم الأرثوذكس نحو المرتفعات الشمالية، حيث توطنت في الكورة.

فالعرب المسلمون، تابعوا فتوحاتهم إلى سواحل لبنان، لا إلى جباله، ودخلوا الأماكن التي كان يقطنها البيزنطيون وأعوانهم الذين فر معظمهم أثناء الفتح، وبقي السكان الأصليون على قلتهم. ومع الدولة الأموية، ازداد العرب المسلمون الذين انتشروا في المدن اللبنانية الساحلية مثل صيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وعرقة، بهدف الدفاع عنها في وجه غزوات الأسطول البيزنطي. أما جبال لبنان، فلم تستهو الفاتحين العرب الذين كانوا يألفون القتال في السهول ولا يميلون إلى مسالك الجبال ووعرها.

(ب) الموارنة

ينتسب الموارنة إلى القديس مارون (ت 410م) الذي عاش في المنطقة التي تقع بين انطاكية وقورس إلى الشمال، وكان عضواً في الكنيسة السورية ويستعمل اللغة السريانية

في الخدمة الكنسية. وبعد وفاته نزح أتباعه إلى مكان قرب أفامية على نهر العاصي، بسبب الخلاف العقائدي مع كنيسة الروم الأرثوذكسية التي كان مركزها انطاكية والقسطنطينية، وفي هذا المكان شيد أتباعه ديراً على اسمه.

وأدى النزاع العقائدي أيضاً، بين الموارنة واليعاقبة، إلى حروب ثأرية بينهم، أسفرت عن هجرة كبيرة للموارنة من أفامية إلى جبال شمال لبنان، في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي.

ويوحنا مارون (ت 89هـ/ 707م)، هو غير القديس مارون، فقد ولد في سروم قرب أنطاكية، ثم التحق بدير مارون في وادي العاصي، وتابع دراسته في القسطنطينية، وسمي أسقفاً على البترون شمال لبنان سنة 57هـ/ 676م[1]. ويعد يوحنا مارون، أول بطريرك للطائفة المارونية التي كرست وجودها على جوانب وادي قاديشا وفي ظلال الأرز، فانتقلت معه بطريركية الموارنة من وادي العاصي إلى وادي قاديشا، بعد تصديه لجيش الامبراطور البيزنطي جستنيان الثاني، الذي حلت به الهزيمة على يد الجيش الماروني في أميون. وبذلك تحول الموارنة إلى طائفة جبلية مستقلة ومنعزلة عن سائر الطوائف التي سكنت المرتفعات العالية في شمال لبنان[2]، وبخاصة في زغرتا وبشري وجبة بشري والمناطق المحيطة.

أما «المردة»، فلم يشكلوا هجرة من الهجرات التي حلت في جبال لبنان الشمالية، ولم يندمجوا مع الموارنة، فثمة تناقض واضح بين المردة والموارنة. فالمردة، كانوا يمثلون إحدى الكتائب العسكرية في جيش الامبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع، المسماة «المردائيتي»، انطلاقاً من جبل اللكام، حيث تمركزت في الجبل الأسود، لتشن حرب العصابات، وهي أهون السبل لإرباك الجيش العربي الأموي وتخفيف الضغط عن العاصمة البيزنطية القسطنطينية التي غدت مهددة من قبل هذا الجيش. وبلغت كتيبة المردة في تقدمها، جبل لبنان، في عهد الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان، وعددهم اثنا عشر ألفاً مع نسائهم وأولادهم، بحيث لم يتجاوز عدد المقاتلين بينهم الأربعة آلاف، كما هي العادة عندما ينقل الجنود من منطقة إلى منطقة، مع عائلاتهم. وبعد أن تم الاتفاق بين

---

1 ـ فيليب حتي: لبنان في التاريخ، ص 303.

2 ـ المرجع نفسه، ص 304.

الامبراطور البيزنطي جستنيان الثاني والخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، تم سحب هذه الكتيبة العسكرية «المردائيتي» إلى موطنها من حيث أتت[1].

وقد وصف البلاذري «المردة» بـ «خيل الروم» بمعنى الفرقة العسكرية في لغة العرب، أو تحديداً «الفرسان» كما جاء في لسان العرب لابن منظور. وهكذا فإن هذه الكتيبة العسكرية «المردائيتي» دخلت جبل لبنان لتنفيذ مهمة عسكرية محددة ثم انسحبت بعد أداء هذه المهمة الموكولة إليها، دون أن تستقر في هذا الجبل، أو تندمج مع بعض السكان المسيحيين الذين لم يغادروا الجبل مع الفتح العربي الإسلامي والانسحاب البيزنطي مثل السريان أو الأنباط أو الجراجمة، ثم الموارنة الذين تحولوا إلى أكثرية في جبل لبنان، بعد انضمام بعض الأقليات المسيحية إلى مذهبهم. وهذا يعني أن الجراجمة الذين سموا كذلك نسبة إلى جرجمة في جبل اللكام، يمثلون هجرة من الهجرات التي استوطنت جبل لبنان، على غرار الموارنة الذين هاجروا من موطنهم القديم في وادي العاصي إلى هذا الجبل. وإذا كان المردة قد انسحبوا بناء لأمر الامبراطور البيزنطي فإن الجراجمة على قلتهم وجدوا مع الأقليات المسيحية الأخرى سبيلاً إلى اعتناق المذهب الماروني، خاصة بعد انتصار البطريرك الماروني الأول يوحنا مارون على الجيش البيزنطي في أميون. وهذا الانتصار، يمثل عصيان الموارنة أمر الامبراطور البيزنطي جستنيان الثاني، فسماهم البطريرك اسطفان الدويهي (ت 1116هـ/ 1704م) «بالمرْدَة»[2] أي العصاة،، لكونهم عصوا أمر جستنيان. لذلك فإن هذه التسمية لا علاقة لها بكتيبة «المردائيتي» أو المردة الذين يأتمرون بأمر الامبراطور البيزنطي.

لم يكن الجراجمة الطائفة المسيحية التي اندمجت بالطائفة المارونية في جبل لبنان الشمالية، بل انضمت إليهم العديد من الأسر المسيحية التي نزحت من حوران مثل آل الخازن وملحمة الذين يدعون أنهم من الغساسنة أي من عرب الجنوب. كما نزح من «صدد» التي تقع جنوب حمص، آل السمعاني وعواد ومسعد والشدياق وثابت

---

1 ـ البلاذري: فتوح البلدان، ص 160.

2 ـ اسطفان الدويهي: تاريخ الطائفة المارونية، ص 71 ـ 74.

والدبس[1]. كما نزح من سورية آنفاً آل القيان وسركيس[2]، ما يعني أن الأقلية المارونية في المرتفعات اللبنانية الشمالية تحولت إلى أكثرية مارونية عربية.

وعلى الرغم من انكفاء الموارنة والروم إلى المرتفعات اللبنانية الشمالية، إما هرباً من دفع الجزية، أو للحفاظ على مسيحيتهم وعدم اعتناقهم الاسلام، إلا أن لبنان وجميع المناطق التي فتحها العرب المسلمون، شهدت انتشار اللغة العربية وسيادتها في المنطقة، وهي لغة القرآن الكريم. وكان لحركة الترجمة من اليونانية إلى العربية عن طريق السريانية أيام الخليفة العباسي هارون الرشيد ثم ابنه الخليفة المأمون في بغداد، أكبر الأثر في جعل اللغة العربية اللغة الشائعة السائدة[3]، لغة المسلمين والمسيحيين، في لبنان وسائر الأقطار العربية. وأصبحت اليونانية أو السريانية مقتصرة على الطقوس الدينية داخل الكنائس.

4 ـ توطن الشيعة (المتاولة) والنصيرية (العلويون) في جبل عامل وكسروان

كانت الشيعة الاثنا عشرية، تقول بأن الخلافة من حق الإمام علي بن أبي طالب، ابن عم النبي وصهره، ومن حق أبنائه من ابنة النبي السيدة فاطمة. فهي تسوق الخلافة بعد الحسين بن علي إلى ابنه زين العابدين علي، ثم إلى أبنائه وأحفاده من بعده، وهم: محمد الباقر، جعفر الصادق، موسى الكاظم، وصولاً إلى الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري الذي اختفى سنة 265هـ/ 878م، فلقبوه بالمهدي. والخلفاء الراشدون الثلاثة أبو بكر وعمر وعثمان، والخلفاء الأمويون والعباسيون، في نظرهم خلفاء مغتصبون غير شرعيين. في حين أئمة الشيعة من أبناء الإمام علي والسيدة فاطمة في نظر أتباعهم خلفاء يتمتعون بسلطة سماوية يتوارثونها أباً عن جد.

وأطلق على الشيعة في لبنان، اسم المتاولة، ومفردها متوالي، وقد ارتبط معظمهم بجبل عامل وكسروان.

---

1 ـ فيليب حتي: لبنان في التاريخ، ص 312.
2 ـ فيليب دي طرازي: أصدق ما كان عن تاريخ لبنان، ج 2، ص 24، 25، 51، 76.
3 ـ فيليب حتي: لبنان في التاريخ، ص 313.

أما الطائفة النصيرية (العلويون)، فسكنت كسروان، وهي تنسب إلى محمد بن نصير النميري أحد أتباع الإمام الحادي عشر الحسن العسكري. وقد عرف النصيريون بالعلويين لأنهم يعتقدون بفكرة تأليه الإمام علي بن أبي طالب، وهذه الفكرة تعود إلى أصل فارسي حيث كان الفرس يعتقدون بألوهية ملوكهم على غرار الفراعنة في مصر. ومما يذكر أن الإمام علي بن أبي طالب رفض هذه الفكرة رفضاً قاطعاً عندما أمر باحراق عبد الله بن سبأ الذي تنسب إليه «السبائية» لأنه حاول أن يغالي فيه وينسب إليه الألوهية، إلا أنه عاد وأمر بنفيه إلى المدائن، بعد أن أشار عليه أصحابه بذلك[1].

وما لبثت الطائفة النصيرية أن نزحت من كسروان، نحو طرابلس قبل أن تستقر في الجبال التي حملت اسمها في سورية، وهي جبال العلويين، وذلك عهد المماليك.

---

1 ـ عصام شبارو: تاريخ المشرق العربي الاسلامي، ص 75.

الفصل الثالث

لبنان في العهد العباسي

(132 ـ 360هـ/ 750 ـ 968م)

سقطت الدولة الأموية وعاصمتها دمشق سنة 132هـ/ 750م، فدخلت المدن اللبنانية الساحلية تحت سلطة الخلافة العباسية المباشرة وعاصمتها بغداد، ثم تأرجحت بين سيطرة الدولتين الطولونية والأخشيدية اللتين نشأتا في ظل الدولة العباسية، في الفترة (264 ـ 360هـ/ 879 ـ 968م).

1 ـ إرسال قبيلة آل تنوخ لصد غارات البيزنطيين

شهد العصر العباسي نزول الساحل اللبناني من رتبته العالية، فبعد أن كان قريباً من العاصمة دمشق أصبح بعيداً عن العاصمة الجديدة بغداد التي بناها المنصور[1]، وتحولت أنظار المسلمين إلى المدن الداخلية كبغداد ودمشق وحمص وحلب. ومع ذلك أدرك العباسيون ما لهذا الساحل من أهمية فأمروا بتحصين ثغوره، وأرسل أبو جعفر المنصور قبيلة من المسلمين (آل تنوخ)، وعول عليهم صد غارات الروم وأهالي الجبل.

---

1 ـ المنصور العباسي (136 ـ 158هـ/ 754 ـ 775م): عبد الله بن محمد بن علي بن العباس، أبو جعفر المنصور، ثاني خلفاء بني العباس. وهو باني مدينة بغداد، أمر بتخطيطها سنة 145هـ/ 763م، وجعلها عاصمة ملكه بدلاً من الهاشمية التي بناها السفاح.
الزركلي: الاعلام، ج 4، ص 117.

فنزل أحد رؤسائهم الأمير أرسلان[1] رأس البيدر، وقطن الباقون أرباض بيروت[2] وصيدا سنة 145هـ/ 763م. وهكذا عمر الأمير أرسلان وأقاربه الجبال المحيطة ببيروت، والتي عرفت في ما بعد بقرى الغرب، وكانت خالية في ذلك الوقت، وسكن هو في سن الفيل، وعندما توفي دفن في بيروت[3].

وجد العباسيون في الامارة التنوخية، ما يغنيهم عن إرسال الجيوش النظامية لتأمين الاستقرار في ساحل لبنان والدفاع عنه. وقد نجح التنوخيون في ضبط الأمور على هذا الساحل، كما في الجبل المتاخم له.

2 ـ الإمام الاوزاعي يدافع عن نصارى المنيطرة

عاصر اثنان من أصحاب المذاهب الأربعة عند أهل السنة، العصرين الأموي والعباسي، وهما الامام أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي (80 ـ 150هـ/ 699 ـ 767م) والإمام مالك بن أنس (93 ـ 179هـ/ 712 ـ 795م)، وقد عاش مذهب كل منهما حتى يومنا هذا. في حين ظهر في لبنان، وتحديداً في بيروت، إمام لم يعش مذهبه طويلاً، هو الإمام الأوزاعي[4] الذي شهد بدوره العصرين الأموي والعباسي. وكان

---

1 ـ الأمير أرسلان (109 ـ 170/ 727 ـ 787): هو أرسلان بن مالك بن بركات بن المنذر بن مسعود، من بني الملك المنذر بن ماء السماء اللخمي. رأس الأسرة الأرسلانية في لبنان وإليه نسبتها، كان مقيماً هو وبعض أقاربه في معرة النعمان (بسورية).
الزركلي: الإعلام، ج 1، ص 288.

2 ـ لجنة من الأدباء: لبنان مباحث علمية واجتماعية، ج 1، ص 296.

3 ـ عصام شبارو: تاريخ بيروت، ص 50.

4 ـ الأوزاعي (88 ـ 157هـ/ 707 ـ 774م): عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعي، من قبيلة الأوزاع، إمام الديار الشامية في الفقه والزهد. ولد في بعلبك، ونشأ في البقاع وسكن بيروت وتوفى بها، وعرض عليه القضاء فامتنع. وله كتاب «السنن» في الفقه و «المسائل»، ويقدر ما سئل عنه بسبعين ألف مسألة أجاب عليها كلها، وكانت الفتيا تدور بالأندلس على رأيه إلى زمن الحكم بن هشام.
ابن النديم: الفهرست، ج 1، ص 227.
صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص 13.
الزركلي: الأعلام، ج 3، ص 320.

الأوزاعي يقيم في بيروت، حيث كان يدرس على نطاق واسع في زاوية معروفة باسمه هي «زاوية الأوزاعي»[1].

وتعد قصة الإمام الأوزاعي مع الوالي العباسي صالح بن علي[2]، من أشهر القصص البطولية في تاريخ المسلمين المرابطين في بيروت والساحل، والذين كانوا يساعدون سكان المدن الداخلية أحياناً، إضافة إلى حمايتهم للساحل اللبناني.

فعندما طلب والي دمشق صالح بن علي من أمير بيروت، ويدعى الوليد بن عثمان المري، مساعدته في القضاء على ثورة بندار في المنيطرة، اكتتب المرابطون في الديوان وتوجهوا إلى المنيطرة. وكان الإمام الأوزاعي أول المرابطين الذين اشتركوا في القضاء على ثورة المنيطرة، ذلك أنه نزل بيروت مرابطاً فيها، ورغم أننا لا نعرف شيئاً عن اشتراكه في الغزوات البحرية، لكنه من المؤكد أنه قاتل عصاة مدينة بيروت، كما اشترك في الاستيلاء على حصن المنيطرة وهدمه[3]. وعندما ثار نصارى المنيطرة ضد الوالي العباسي صالح بن علي سنة 142هـ/ 760م، بسبب تعسفه وظلمه في فرض الضرائب، كانت ردة فعل الوالي العباسي شديدة، فهاجم القرى في منطقة المنيطرة، وشتت سكانها في طول البلاد وعرضها، وقضى على الثورة بقسوة. وهنا تحرك الإمام الأوزاعي، فكتب إلى الخليفة المنصور العباسي يقول:

«وقد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم إلى قراهم ما قد علمت. فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة، حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم، وحكم الله تعالى أن لا تزر وازرة وزر أخرى. وهو أحق مما وقف عنده واقتدى به، وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية

---

1 ـ عصام شبارو: تاريخ بيروت، ص 48.

2 ـ صالح بن علي العباسي (96 ـ 151هـ/ 714 ـ 768م): هو صالح بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي الأمير عم السفاح والمنصور، وأول من ولي مصر من قبل الخلفاء العباسيين. كان شجاعاً حازماً، ولد بالشراة (من أرض البلقاء) وتوفي بقنسرين.
الزركلي: الأعلام، ج 3، ص 193.

3 ـ زاهية قدورة: بحوث عربية، ص 92، 93.

رسول الله ﷺ، فإنه قال من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه»[1].

وهكذا اتضح موقف الأوزاعي، الذي وقف ضد الثورة من جهة، كما وقف ضد تعسف الوالي في القضاء عليها من جهة أخرى. فالإمام الأوزاعي اشتهر في بيروت وذاع صيته في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وعندما مر الخليفة المنصور العباسي في بيروت، سمع الإمام الأوزاعي يخطب في المسجد، فأعجب به كثيراً وأحبه، وقد استشاره بعد ذلك في بعض الأمور. وعندما سمع الأوزاعي أن الخليفة متردد في إفتداء بعض أسرى المسلمين الذين وقعوا في يد الروم، بعث إليه برسالة يطلب فيها افتداءهم، فاستجاب الخليفة العباسي لرسالته، حتى قيل إن الأوزاعي «سلطته تفوق سلطة الخليفة»[2].

والأوزاعي هو «إمام أهل الشام ولم يكن بالشام أعلم منه»[3]. ومن بيروت انتشر مذهبه في بلاد الشام، حيث ظل الفقهاء والقضاة يأخذون به، مدة قرنين من الزمن، إلى أن حل محله المذهبان الحنفي والشافعي. ومن بيروت أيضاً انتشر مذهبه إلى المغرب والأندلس، حيث ظل الفقهاء يأخذون به مدة أربعين سنة[4]، ثم حل محله المذهب المالكي.

وفي شتاء سنة 157هـ/ 774م، دخل الأوزاعي غرفة الحمام، حيث وضعت له زوجته «كانوناً» فيه حجر فحم لتدفىء الغرفة، مما أدى إلى موته خنقاً، فدفن عند كثبان الرمل التي تقع على الشاطىء جنوبي بيروت. ومقام الأوزاعي[5]، لا يزال قائماً إلى يومنا هذا في ضاحية بيروت، وقد حفظ لنا المسجد الوحيد، الذي بقي في بيروت منذ ذلك الزمن، وهو جامع «حنتوس»[6]. وحنتوس قرية قديمة، درست وانمحت

---

1 ـ البلاذري: فتوح البلدان، ص 162.
2 ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج 1، ص 492.
صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 15.
3 ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج 1، ص 492.
4 ـ صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص 13.
5 ـ الأصطخري: مسالك الممالك، ص 65.
ابن حوقل: صورة الأرض، ص 162.
6 ـ محمد طه الولي: تاريخ المساجد، ص 35، 72.

آثارها، ونشأت مكانها ضاحية تعرف اليوم باسم «محلة الأوزاعي»، نسبة إلى مقام الإمام الأوزاعي المدفون في الجهة القبلية من الجامع. ويرجع الفضل في بقاء هذا الجامع الذي عرف أيضاً باسم «جامع الأوزاعي»، إلى النصارى الذين أقنعوا الفرنج بعدم هدمه. وقد عبر النصارى بذلك عن وفائهم لحرمة الإمام الأوزاعي المدفون في الجامع، وهو الذي وقف بجانبهم خلال أزمتهم مع الوالي العباسي صالح بن علي[1].

3 ـ الاهتمام بتدعيم الساحل اللبناني منذ خلافة هارون الرشيد

لم تهتم الدولة العباسية، في مطلع عهدها، بالشؤون البحرية، فأغفلت تدعيم المدن اللبنانية الساحلية التي أصبحت معرضة للغزو.

ومنذ عهد هارون الرشيد (170 ـ 193هـ/ 786 ـ 809م)، أبدت الدولة العباسية اهتماماً خاصاً بالشؤون البحرية، فقد أقيمت الصناعة البحرية، وقسمت الأموال في الثغور والسواحل. ثم أن هارون الرشيد ولى حميد بن معيوف على سواحل الشام ومصر سنة 190هـ/ 806م[2].

وفي عهد المتوكل على الله (232 ـ 247هـ/ 847 ـ 861م) صدر الأمر بترتيب المراكب في جميع السواحل وأن تشحن بالمقاتلة[3]. وعلى هذا الأساس بدأ العباسيون يسعون إلى استعادة السيادة البحرية الإسلامية في البحر المتوسط الشرقي، لإيجاد نوع من التوازن مع المغاربة والأندلسيين الذين آلت إليهم السيطرة على نصفه الغربي[4].

وفي سنة 257هـ/ 871م، تولى الأمير النعمان بن عامر الأرسلاني[5] مدينة

---

1 ـ عصام شبارو: تاريخ بيروت، ص 52.
2 ـ المرجع نفسه، ص 53.
3 ـ البلاذري: فتوح البلدان، ج 1، ص 193.
4 ـ العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص 38.
5 ـ الأمير النعمان بن عامر الأرسلاني (227 ـ 325هـ/ 842 ـ 937م): هو نعمان بن عامر بن هانىء بن مسعود بن أرسلان التنوخي اللخمي، أبو الحسام أمير عالم بفقه المالكية. شاعر من أسلاف آل أرسلان في لبنان. تعلّم ببغداد وولي إمارة الساحل وصفد.
الزركلي: الأعلام، ج 8، ص 37.

بيروت وصيدا[1] والجبال المحيطة بها، وعادت بيروت كمركز دفاع ساحلي، وذلك بأمر أماجور التركي عامل دمشق وأعمالها من قبل الخليفة العباسي المعتمد على الله (256 ـ 279هـ/ 870 ـ 892م). واشتهر الأمير النعمان بحروبه مع المردة سنة 262هـ/ 876م، ومع الفرنج في منطقة رأس بيروت سنة 303هـ/ 917م. وظل يتولى بيروت إلى أن توفى أماجور سنة 264هـ/ 879م ، فآلت المدن اللبنانية الساحلية إلى الدولة الطولونية.

4 ـ سيطرة الدولة الطولونية على الساحل اللبناني (264 ـ 333هـ/ 879 ـ 944م)

في سنة 264 هـ/ 879م، آلت بيروت وصيدا إلى الدولة الطولونية في مصر، فأقر أحمد بن طولون[2]، الأمير النعمان على بيروت وصيدا[3]، حتى وفاته سنة 325هـ/ 936م، فخلفه عليها ابنه الأمير منذر[4]. وقد خضعت بيروت والمدن الساحلية للدولة الطولونية بحكم تبعيتها لدمشق.

ويذكر أن ابن طولون استدعى جده من بيت المقدس ليبني ميناء لمدينة عكا داخل البحر، ولم يقتصر هذا البناء على عكا بل تعداه إلى بيروت وصور، حيث ربطت السلاسل الضخمة لتمنع دخول المراكب غير المرغوب فيها لا سيما ليلاً.

---

1 ـ داود كنعان: بيروت في التاريخ، ج 1، ص 21.

2 ـ أحمد بن طولون (220 ـ 270هـ/ 835 ـ 884م): صاحب الديار المصرية والشامية والثغور. تركي مستعرب، تفقه وتأدَّب عند الخليفة المتوكل إلى أن ولي إمرة الثغور وإمرة دمشق ثم مصر سنة 254هـ/ 868م. كان حاد الخلق، سفك كثيراً من الدماء في مصر والشام. مرض في انطاكية وتوفى في مصر.
الزركلي: الأعلام، ج 1، ص 140.

3 ـ العبادي وسالم: تاريخ البحرية الاسلامية، ص 51.

4 ـ طنوس الشدياق: أخبار الأعيان، ج 2، ص 286.

5 ـ سيطرة الدولة الأخشيدية على الساحل اللبناني وبعلبك (333 ـ 360هـ/ 944 ـ 968م)

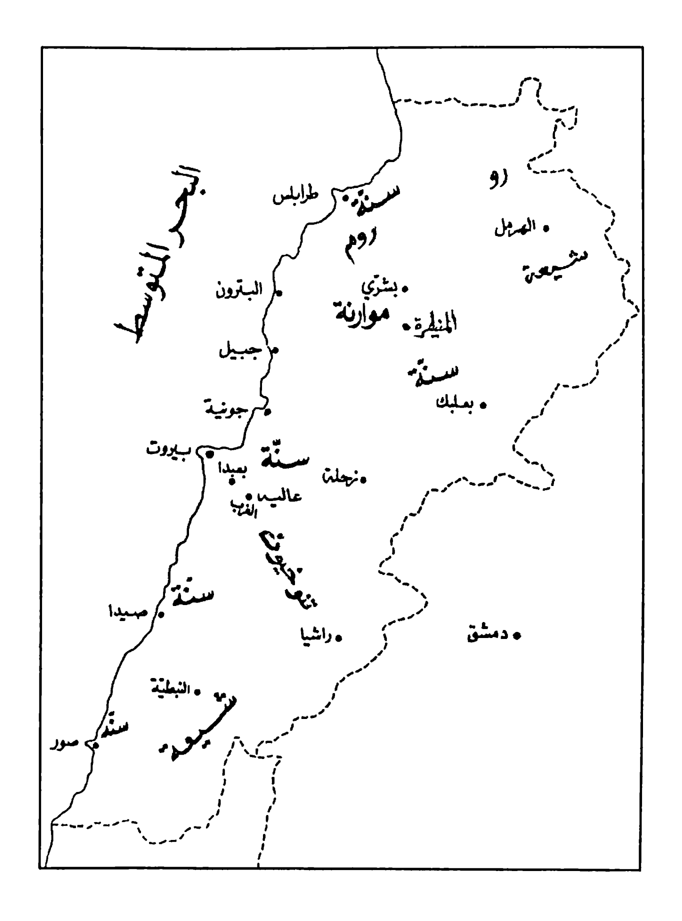
أصبحت المدن اللبنانية التابعة لدمشق تقع تحت نفوذ المسيطر على مصر، فبعد أن خضعت لسيطرة الدولة الطولونية، أصبحت بيروت والمدن الساحلية طرابلس وصيدا وصور، إضافة إلى دمشق وبعلبك، تابعة للدولة الأخشيدية في مصر. وذلك بعد أن حصل محمد بن طغج الأخشيد[1] على تقليد من الخليفة العباسي المتقي لله سنة 333هـ/ 944م بولاية مصر والشام[2]. وبوفاة الأخشيد تولى الحكم ولداه أنجور وأبو الحسن علي.

ثم تولى كافور حكم مصر والشام ومن بعده أحمد أبو فراس سنة 360هـ/ 968م، فلم يستطع الوقوف أمام الفاطميين، الذين قضوا على الدولة الأخشيدية، ودخل لبنان تحت نفوذهم.

---

1 ـ الإخشيد (268 ـ 334هـ/ 882 ـ 946م): هو محمد بن طغج بن جف، أبو بكر، الملقب بالإخشيد، مؤسس الدولة الإخشيدية في مصر والشام والدعوة فيها للخلفاء من بني العباس. وهو تركي الأصل، مستعرب من أبناء المماليك. ولد ونشأ ببغداد وتوفى بدمشق ودفن في بيت المقدس.
الزركلي: الاعلام، ج 6، ص 174.

2 ـ عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة صيدا، ص 66.



توزيع المذاهب في لبنان في العهد العباسي

الفصل الرابع

لبنان في العهد الفاطمي

(360 ـ 503هـ/ 970 ـ 1110م)

بعد موت كافور الأخشيدي، سار القائد جوهر[1] من القيروان إلى مصر فدخلها سنة 358هـ/ 968م. وبعد عام على دخوله مصر فاتحاً، سير حملة على بلاد الشام سنة 359هـ/ 969م، لتوطيد سلطة الدولة الفاطمية في مصر والشام. وكانت الحملة بقيادة جعفر بن فلاح الكتامي[2]، الذي استولى على دمشق ودخلها سنة 360هـ/ 970م. وقد اقر جعفر بعد دخوله دمشق، الأمير سيف الدولة المنذر التنوخي على إقليم الغرب، بما فيه بيروت وطرابلس وصيدا، بعد أن قدم ولاءه للفاطميين[3]. وبوفاة الأمير المنذر سنة 362هـ/ 972م، خلفه ابنه الأمير تميم على إقليم الغرب[4].

---

1 ـ جوهر (ت 381هـ/ 991م): جوهر بن عبد الله الرومي، أبو الحسن، من عظماء القواد في الدولة الفاطمية، توفى بالقاهرة التي بناها سنة 358هـ/ 969م وسماها المنصورية ثم سماها المعز القاهرة، كما فرغ من بناء الجامع الأزهر سنة 361هـ/ 971م.
الزركلي: الاعلام، ج 2، ص 148.

2 ـ جعفر بن فلاح الكتامي (ت 360هـ/ 970م): أحد قواد المعز العبيدي (صاحب إفريقية) الذي سيَّره مع القائد جوهر لفتح مصر فدخلاها. وبعثه جوهر إلى الشام فامتلك دمشق سنة 359هـ/ 969م، وقتله بها الحسن بن أحمد القرمطي.
المرجع نفسه، ج 2، ص 126.

3 ـ طنوس الشدياق: أخبار الأعيان، ج 2، ص 286.

4 ـ عصام شبارو: تاريخ بيروت، ص 56.

1 ـ الامبراطور البيزنطي يوحنا زيميسيس يغزو الساحل اللبناني (363 ـ 365هـ/ 974 ـ 976م)

في مطلع العهد الفاطمي، تمكن الامبراطور البيزنطي يوحنا زيميسيس الذي يدعوه العرب «ابن الشمشقيق» من غزو حمص ثم بعلبك ودخولها، ليسير على طريق الساحل ويغزو ثغر بيروت سنة 364هـ/ 975م، فامتنع أهله عليه، فقاتلهم ودخل بيروت عنوة ونهبها وسبى الكثير من أهلها[1]، بعد أن ;أسر أميرها نصر الخادم وحمله إلى بلد الروم+[2]. أما مدينة صيدا فقد فرضت عليها الجزية، ولم تنجُ جبيل مما حل بغيرها من المدن اللبنانية.

وكان سقوط بيروت لفترة قصيرة بيد الدولة البيزنطية، دافعاً لزيادة تحصين المدينة وغيرها من المدن الساحلية، بعدما اتضح أنها معرضة لغزو البيزنطيين. لذلك فشل الامبراطور البيزنطي باسيل الثاني مرتين في احتلال طرابلس، سنة 385هـ/ 995م ثم سنة 389هـ/ 999م، وذلك بفضل حامية المدينة وأسوارها المنيعة[3].

2 ـ تعيين الولاة على المدن اللبنانية الساحلية

ولى الحاكم بأمر الله الفاطمي على بيروت، سنة 405هـ/ 1014م، الفتح القلعي[4]، وأضاف إليه صيدا وصور، ولقبه مبارك الدولة وسعد الدولة، لقاء ضريبة يدفعها له قدرها ثلاثمائة ألف دينار[5].

وسنة 439هـ/ 1047م، كان المتولي على بيروت، أبو سعيد قابوس بن فاتك

---

1 ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 14.

2 ـ يحي بن سعيد الأنطاكي: الذيل على تاريخ ابن بطريق، ص 131.

3 ـ فيليب حتي: لبنان في التاريخ، ص 337.

4 ـ الفتح القلعي: كان دزدار القلعة في حلب في أواخر دولة بني حمدان، وكان في خدمة صاحب حلب أبي نصر بن لؤلؤ فجرت وحشة بينه وبين أستاذه فعصاه واستولى على القلعة. وكاتب الحاكم بأمر الله الفاطمي فأرسل الحاكم نوابه فتسلموا حلب وقلعتها من الفتح، وأقطعه عوضها صيدا وبيروت ،ولقبه مبارك الدولة وسعدها ،ثم ولاه على صور في السنة التالية.
صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 15.

5 ـ فيليب حتي: لبنان في التاريخ، ص 336.

أمير الغرب، وذلك من قبل المستنصر بالله الفاطمي. وسنة 443هـ/ 1051م، أقطع المستنصر، عكا وبيروت[1] وجبيل لمعز الدولة ثمال بن مرداس[2].

وما لبثت حركة الانفصال عن الدولة الفاطمية، أن عمت بعض المدن اللبنانية الساحلية مثل صور وطرابلس.

3 ـ ثورة الملاح «علاقة» في صور (387هـ/ 997م)

تعاون أحد الملاحين في صور، ويدعى «علاقة»، مع الأسطول البيزنطي الذي دعمه في اعلان الثورة ضد الحكم الفاطمي، سنة 387هـ/ 997م، وهي السنة الثانية من عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي (386 ـ 411هـ/ 996 ـ 1021م).

وما لبث علاقة أن أعلن استقلاله في مدينة صور، وصك نقوداً باسمه، تحمل عبارة «عز بعد فاقه للأمير علاقة»[3]. لكن الاسطول الفاطمي لم يسمح باستمرار انفصال صور، فحاصرها، وأجبر الأمير علاقة على تسليم المدينة، قبل أن يقع أسيراً ويسلخ حياً ويحشى جلده بالتبن والقش، لتعرض جثته عند باب المدينة[4]، حتى يكون عبرة لكل من تسول نفسه الثورة على الحكم الفاطمي.

4 ـ تأسيس إمارة بني عقيل في صور (462 ـ 482هـ/ 1070 ـ 1089م)

انسلخ عن الخلافة الفاطمية كثير من المدن الساحلية اللبنانية، حيث نشأت

---

1 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 15.

2 ـ معز الدولة ثمال بن مرداس (ت 454هـ/ 1062م): أبو علوان من ملوك الدولة المرداسية بحلب. كان كريماً حليماً شجاعاً، ولي الملك سنة 434هـ/ م، وهاجمه الفاطميون من مصر لكنه هزمهم. ثم غزا الروم وتوفي في حلب.
الزركلي: الأعلام، ج 2، ص 100.

3 ـ فيليب حتي: لبنان في التاريخ، ص 336.

4 ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 50، 51.

امارات عربية مستقلة، حاولت اتباع سياسة الحياد بين القوتين السلجوقية «السنية» والفاطمية «الشيعية» دون جدوى.

ففي سنة 462هـ/ 1070م، أسس القاضي الشيعي عين الدولة بن أبي عقيل امارة بني عقيل في صور. وفشل أمير الجيوش بدر الجمالي من إعادة السيطرة الفاطمية على صور التي مالت نحو السلاجقة، بعد فشلها في الوقوف على الحياد.

وبعد وفاة عين الدولة، عمد أولاده إلى تسليم صور إلى الفاطميين سنة 482هـ/ 1089م[1].

5 ـ تأسيس امارة بني عمار في طرابلس (462 ـ 503هـ/ 1070 ـ 1109م)

أسس القاضي الشيعي أمين الدولة أبو طالب عبد الله بن محمد بن عمار، امارة بني عمار في طرابلس، سنة 462هـ/ 1070م. وبعد وفاته سنة 464هـ/ 1072م، تسلم الحكم ابن أخيه جلال الملك أبو الحسن بن عمار. وعندما ساءت علاقته بالفاطميين، اتجه للتعاون مع السلاجقة. ثم عاد إلى سياسة الحياد بينهما حتى وفاته، ليخلفه فخر الملك أبو علي محمد بن عمار الذي شهد نهاية امارة بني عمار على يد الفرنج الذين أقاموا كونتية طرابلس سنة 503هـ/ 1109م[2].

6 ـ الموحدون «الدروز»

دخل الدعاة الفرس إلى مصر، حيث طغى المذهب السني على أغلبية الشعب المصري. فدعا حمزة بن علي الزوزني الخراساني إلى تأليه الحاكم بأمر الله الفاطمي (386 ـ 411هـ/ 996 ـ 1020م) ، بعد أن وجد عنده الاستعداد لتقبل ذلك، وإن لم يعلن

---

1 ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 165، 182.
سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ص 178.
2 ـ ابن العديم: زبدة الحلب، ج 2، ص 35.
ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 162، 163.

ذلك صراحة. وعرفت دعوته بالتوحيد وأتباعها بالموحدين، وتقوم على أساس الرسائل التي نصها حمزة[1].

وقد صبّ المصريون جام غضبهم، على الدعاة الفرس، منذ اعلان فتح باب دعوة التوحيد وألوهية الحاكم بأمر الله الفاطمي، وهي الدعوة التي انقسم أتباعها إلى فريقين، أحدهما بزعامة محمد بن اسماعيل الدرزي، والثاني بزعامة حمزة بن علي. وحلت الهزيمة بهما سنة 408هـ/ 1017م، فانسحب الدرزي إلى وادي التيم في سهل البقاع، وتوارى حمزة بن علي عن الأنظار، ليعيد فتح باب الدعوة من جديد سنة 410هـ/ 1019م، فيثور المصريون عليه، وينتهي الأمر بمقتل الحاكم بأمر الله سنة 411هـ/ 1020م، ثم مقتل حمزة بن علي ومعظم الدعاة، لتنتهي هذه الدعوة في القاهرة عهد الظاهر لا عزاز دين الله ابن الحاكم بأمر الله (411 ـ 427هـ/ 1020 ـ 1035م). في حين استمرت دعوة الموحدين في وادي التيم في البقاع، وحملت اسماً جديداً هو «الدروز» نسبة إلى محمد الدرزي الذي انتقل إلى هناك، وما لبث أن دعا لنفسه، ولم يتقيد بأوامر حمزة بن علي، وعرف أتباعه بالدروز، على الرغم من أنهم يفضلون تسمية «الموحدين» أو بني معروف.

خلف حمزة بن علي، في نشر الدعوة، تلميذه المقتنى بهاء الدين (ت 434هـ/ 1042م) وهو الذي حدد في رسائله وكتبه الأربعة سياسة الطائفة الدينية الجديدة القائمة على ابقاء الدين أمراً سراً، ومعه أقفل باب الدعوة، فلا يقبل جديد ضمن هذه الطائفة.

وأقدم الخلوات الدرزية، حيث تقام الصلوات الجماعية، هي خلوات البيّاضة قرب حاصبيا، وخلوة شبعا. ومن جنوب لبنان، انتشرت الدرزية في الجبال شمالاً، متحاشية الساحل والبقاع، حتى لا تصطدم بالمسلمين السنّة أو الشيعة. وقد انضمت إلى

1 ـ راجع: حمزة بن علي بن أحمد واسماعيل التميمي وبهاء الدين بن أحمد السموقي: رسائل الحكمة. ستة أجزاء في ثلاثة مجلدات 1982م.
عبد الله النجار: مذهب الدروز والتوحيد. بيروت، طبعة ثانية 1967م.
حامد بن سيرين: مصادر العقيدة الدرزية. دار لأجل المعرفة، ديار عقل، لبنان 1985.
سامي مكارم: أضواء على مسلك التوحيد «الدرزية». دار صادر، بيروت 1966م.

الطائفة الدرزية في ما بعد، قبائل عربية أو متعربة مثل التنوخيين وآل أرسلان والمعنيين وآل جنبلاط. وانتشرت الدرزية في الشوف زمن الحروب الصليبية، وهاجر عدد منهم إلى جبل حوران جنوب دمشق، ليحمل اسم جبل الدروز. واستقر الدروز في لبنان، في الشوف وقرى الغرب وعالية والشويفات والمتن.

7 ـ الحياة الاقتصادية

كان جبل لبنان، في العهد الفاطمي، بلد الأثمار الشهية، وفيه عيون كثيرة عذبة، ونوع من التفاح له خاصة غريبة، يكتسب معها نكهة طيبة بعد قطفه من الشجر.

وقد أعجب الرحالة ابن حوقل الذي عاش في منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي بخصب تربة مدينة طرابلس الذي يعزى إلى نهر أبي علي، وبرخص أسعار السلع المنتجة فيها[1]. أما المقدسي الذي زار لبنان سنة 387هـ/ 995م فيصف غنى مدينة بعلبك بجميع أصناف العنب، وكثرة الألبان ومشتقاتها. وشاهد في جبل عامل أحسن أنواع العسل والعنب والزيتون والفاكهة وعيون الماء[2]، مشيراً إلى أن صور مدينة مشهورة بتصدير السكر والخرز والأواني الزجاجية[3].

وفي شعبان سنة 438هـ/ 1046م، تجول رحالة فارسي يدعي ناصر خسرو في الساحل اللبناني، فزار مدينة طرابلس، وأعجب بجودة قصب السكر ومختلف أنواع البرتقال وبساتين الموز والنخيل، وصناعة الورق الجيد. ويذكر أن عدد سكان طرابلس يبلغ عشرين ألف نسمة، وفيها فنادق أو خانات ذات طبقات يتراوح عددها بين أربع وست طبقات[4]. وتتردد السفن من بلاد اليونان والمغرب والأندلس، إلى ميناء طرابلس، ومنه تسير السفن الفاطمية إلى بلاد اليونان وصقلية والمغرب[5].

---

1 ـ ابن حوقل: صورة الأرض، ص 116.
2 ـ المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 181، 184، 186.
3 ـ المصدر نفسه، ص 180.
4 ـ فيليب حتي: لبنان في التاريخ، ص 339.
5 ـ ناصر خسرو: سفر نامة، ص 40 ـ 42.

ثم زار ناصر خسرو مدينة جبيل المحاطة بسور عال منيع، وهي غنية بأشجار الفاكهة والنخيل[1].

ولما وصل بيروت، رأى قنطرة عظيمة فوق الطريق المؤدي إلى المدينة، وعلى رأسها أعمدة الرخام، وفوق الأعمدة سلسلة من قناطر[2]، وهذا يدل على أن الأبنية العديدة التي بناها الرومان في بيروت، لم تطمس آثارها[3] في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

ويذكر ناصر خسرو أن سور صيدا له أربعة أبواب، وأسواقها مزينة تزييناً رائعاً، وتمتد بساتينها حسب هندسة جميلة. وكذلك أعجب بمدينة صور المجهزة بالماء الذي يصلها من الجبال في قناة مرتفعة، وأسواقها مكتظة بالبضائع والسلع، وهي في غاية النظافة، وفنادقها أو خاناتها عبارة عن أبنية ذات خمس أو ست طبقات[4].

ويذكر هؤلاء الرحالة الجغرافيون الذين زاروا هذه المدن الساحلية اللبنانية: طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور، بأنها كانت حصينة تحيط بها أسوار وأبراج وقلاع، لأن الفاطميين كانوا يخشون عدوين: قراصنة البحر، وغزوات الأسطول البيزنطي[5]. وهم لا يدرون أن الخطر الكبير الذي سيهدد ساحل بلاد الشام، بما فيه الساحل السوري ـ اللبناني ـ الفلسطيني، جاء هذه المرة من الغرب الأوروبي، وليس من الشرق البيزنطي، وذلك عن طريق الفرنج الذين تستروا براية الصليب، ليعرف أصحابه بالصليبيين.

---

1 ـ ناصر خسرو: سفر نامة، ص 43، 44.

2 ـ المصدر نفسه، ص 44 ، 45.

3 ـ لجنة من الأدباء: لبنان مباحث علمية، ج 1، ص 301، 302.

4 ـ ناصر خسرو: سفر نامة، ص 46، 47.

5 ـ فيليب حتي: لبنان في التاريخ، ص 339.

الفصل الخامس

لبنان في ظل الزنكيين والأيوبيين والفرنج

(503 ـ 690هـ/ 1109 ـ 1291م)

فشل الفاطميون «الشيعة» في تحقيق هدفهم الرئيسي من دخول مصر، وتأسيس القاهرة التي أرادوا من اسمها قهر الخلافة العباسية «السنية»، فقد نعمت الخلافة العباسية بدعم عسكري كبير، مع ظهور السلاجقة «السنّة» الذين وقفوا في وجه النفوذ الفاطمي في ساحل بلاد الشام، وتمكنوا من اقتطاع عدد كبير من مدن هذا الساحل منذ سنة 467هـ/ 1074م، وفقدت الدولة الفاطمية سلطانها، في الرملة وعكا وبيت المقدس وصيدا وبيروت وجبيل وعرقة وطرابلس ودمشق[1]. ثم ضعف نفوذ السلاجقة بسبب الصراع على الحكم، فاستطاع الفاطميون إعادة المدن الساحلية سنة 490هـ/ 1097م. وبذلك كانت هذه المدن بما فيها طرابلس وبيروت وبيت المقدس، تخضع للدولة الفاطمية حين دخول الفرنج سنة 493هـ/ 1099م[2].

لا شك، أن الصراع المذهبي حول السيطرة والنفوذ، بين الخلافة الفاطمية «الشيعية» في مصر، والخلافة العباسية «السنية» في بغداد، انعكس صراعاً عسكرياً بين الفاطميين والسلاجقة حول بلاد الشام، بما فيها لبنان وسوريا وفلسطين، وهو الصراع المذهبي الذي

---

1 ـ العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص 103 ، 106 .

2 ـ عصام شبارو: تاريخ بيروت، ص 57.

سهل دخول الفرنج من غرب أوروبا إلى ساحل بلاد الشام، ليؤسسوا اماراتهم الصليبية في الرها وأنطاكية وطرابلس وبيروت، ورمزها الكبير مملكة بيت المقدس.

1 ـ سقوط المدن اللبنانية الساحلية بيد الفرنج
(503 ـ 518هـ/ 1109 ـ 1124م)

(أ) الحملة الصليبية الأولى وتأسيس امارتي الرها وانطاكية ومملكة بيت المقدس
(489 ـ 493هـ/ 1096 ـ 1099م)

خرجت فكرة الحروب الصليبية من روما، وبدأ تنفيذها على يد البابا أربان الثاني، الذي تولى كرسي البابوية سنة 474هـ/ 1081م، فاستغل الروح الدينية المسيطرة على شعوب غرب أوروبا، كما استغل طلب الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين بالمساعدة لإنقاذ الإمبراطورية الشرقية قبل فوات الأوان، بعد أن صار بيت المقدس والرها وأنطاكية بيد المسلمين. وبذلك كان الباعث الديني له الأثر الفعال في بدء الحروب الصليبية، نظراً لأهمية الدين الذي استغلوه كوسيلة للتحريض والدعاية من أجل إخفاء البواعث الحقيقية للحروب الصليبية التي اندفع وراءها الغرب الأوروبي تحقيقاً لمصالحه السياسية والاقتصادية والتوسعية.

تجدر الإشارة إلى الدور المميز لفرنسا في هذه الحروب الصليبية، فلقد أضفت الكنيسة في فرنسا على طبقة الفرسان شيئاً من طموحها الروحي، واصطبغ الإعداد لرتبة فارس بكل مظاهر القداسة التي ابتكرتها الكنيسة أصبح الفارس الفرنسي نموذجاً لغيره من الفرسان الأوروبيين حتى قامت فرنسا من الحروب الصليبية مقام الروح من الجسد، وقد شارك ملوكها في معظم حملاتها، دون أن ننسى أن البابا أربان الثاني فرنسي الأصل، وكذلك مساعده الراهب بطرس الناسك كان فرنسياً، وعندما استغل البابا أربان الثاني الروح الدينية المسيطرة على شعوب أوروبا الغربية دعا إلى حمل الصليب في مدينة كليرمون في فرنسا سنة 488هـ/ 1095م، مما يعني أن بذور الحرب الصليبية جرى إلقاؤها في تربة فرنسية، وقد بدأت واستمرت في جوهرها مشروعاً فرنسياً، حتى أن المملكة التي أقامها الصليبيون في المشرق العربي الإسلامي

كانت أيضاً في جوهرها مملكة فرنسية في لغتها وعاداتها. لذلك يمكن اعتبار فرنسا مَهْدَ الحروب الصليبية[1].

أطلقت المصادر العربية على الصليبيين اسم الفرنج، وقد انطلق الفرنج في حملة ضخمة من فرنسا وألمانيا وايطاليا، وذلك في سنة 489هـ/ 1096م، وهي التي اتفق المؤرخون على تسميتها بالحملة الصليبية الأولى. وكانت هذه الحملة بقيادة الأمراء الاقطاعيين وتفتقر إلى القيادة الموحدة، ومع ذلك فهي أول حملة منظمة تتجه نحو المشرق العربي الإسلامي، وقد انقسمت إلى أربعة جيوش، الأول بقيادة غودفروا دو بويون وأخيه بودوين من اللورين، والثاني بقيادة بوهمند أمير تارانت ومعه ابن أخيه تانكرد، والثالث بقيادة ريموند صاحب تولوز يرافقه أدهيمر دو مونتيل نائب البابا في هذه الحملة، والرابع بقيادة روبرت أمير نورمنديا. ولهؤلاء الأمراء الاقطاعيين يرجع الفضل في تحقيق الحملة غايتها المرجوة، وذلك بمساعدة الامبراطور البيزنطي، حيث ظهر التنافس بينهم جميعاً حول السيطرة والنفوذ، فسيطر الامبراطور البيزنطي على قونية، في حين تجلت الأطماع الفرنجية باقامة بودوين لإمارة الرها سنة 490هـ/ 1097م، وتأسيس بوهمند لإمارة أنطاكية سنة 491هـ/ 1098م، وسيطرة غودفروا على بيت المقدس سنة 493هـ/ 1099م قبل أن يتولى مملكتها بودوين، ثم إقامة كونتية طرابلس على يد ريموند.

تصدى السلاجقة وحدهم للفرنج في ذلك الوقت، ولم يتمكنوا من الصمود طويلاً، فانفتحت أبواب بلاد الشام أمام الفرنج الذين أسسوا إمارة الرها قبل أن يتوجهوا إلى أنطاكية، مستغلين الانقسام المذهبي بين الخلافتين العباسية والفاطمية، والذي انعكس تأثيره بصورة خاصة على أرض بلاد الشام، حيث شعرت الدولة الفاطمية بالارتياح لما حل بالسلاجقة من هزائم أمام الفرنج، بل وذهبت أبعد من ذلك، عندما أرسل الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي سفارة إلى الفرنج وهم أمام أبواب أنطاكية سنة 491هـ/ 1098م، تعرض التحالف من أجل القضاء على السلاجقة واقتسام بلاد

---

1 ـ عصام شبارو: تاريخ المشرق العربي الاسلامي، ص 93.

الشام، على أن يحتفظ الفاطميون بالمناطق الجنوبية بما فيها بيت المقدس، في حين يسيطر الفرنج على المناطق الشمالية بما فيها أنطاكية[1]. وقيل أن الفرنج كانوا قد أرسلوا من نيقية سفارة إلى الوزير الفاطمي في مصر لمحالفة الفاطميين ضد السلاجقة[2]. وهذا الأمر جعل بعض المؤرخين المسلمين ينحون باللائمة على الفاطميين لموقفهم السلبي وعدم مواجهة الفرنج[3]. بل وذهب البعض أبعد من ذلك معتبراً أن الفاطميين هم الذين استدعوا الفرنج للقضاء على السلاجقة في الشام أو ليكونوا حاجزاً فاصلاً بين السلاجقة والفاطميين[4].

أما الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي، فقد انتهز فرصة انشغال السلاجقة بمواجهة الفرنج. وأخذ يعمل على استرداد المناطق التي كانت تحت سيطرة الخلافة الفاطمية في بلاد الشام، فدخل صور عنوة سنة 491هـ/ آب 1098م، ثم استرد بيت المقدس من سقمان الأرتقي وأخيه ايلغازي في رمضان 491هـ/ آب 1098م[5]، وأعاد السيطرة الفاطمية من مصر جنوباً إلى ساحل الشام حتى حدود نهر الكلب شمالاً ومجرى نهر الأردن شرقاً[6]، وهذا الأمر يوضح عدم إدراك الوزير الفاطمي لحقيقة مطامع الفرنج ونواياهم، بعد تمكنهم من إيهام الفاطميين أن هدفهم الوحيد هو الرها وأنطاكية واللاذقية، وهي المناطق التي كانت تابعة للبيزنطيين في وقت مضى.

بعد أن تابعت الحملة الصليبية سيرها نحو بيت المقدس، أدرك الفاطميون حقيقة نوايا الفرنج ومطامعهم، فكان ذلك إيذاناً ببدء الصدام بينهما[7].

الحقيقة أن الخلافة الفاطمية لم تكن مسؤولة عن مجيء الفرنج إلى المشرق العربي الإسلامي، ولم تتحالف معهم قبل مجيئهم وإذا كانت قد اتصلت بهم بعد مجيئهم بهدف

---

1 ـ Setton: A History of the Crusades, t I p 316.

2 ـ Michaud: Histoire des Croisades, t I p 362.

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 230.

3 ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج 5، ص 147.

4 ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج 8، ص 186.

5 ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 135.

6 ـ Setton: A History of the Crusades, t I p 316.

7 ـ عصام شبارو: تاريخ المشرق العربي الاسلامي، ص 97.

القضاء على السلاجقة، فلأنها لم تكن مدركة الهدف الرئيسي للحملة الصليبية، وهو تأسيس مملكة بيت المقدس. كذلك لم يتخاذل الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر، وخرج من مصر على رأس الجيش للحؤول دون احتلال الفرنج لبيت المقدس، لكنه وصل إلى عسقلان في يوم الخميس 14 رمضان 492هـ/ 4 آب 1099م، وذلك بعد ضياع بيت المقدس بعشرين يوماً[1]. وبدل أن يبادر بالهجوم، اضاع الوقت في انتظار قدوم الأسطول الفاطمي، مما سهل الأمر أمام الفرنج لمباغتته في عسقلان وإنزال الهزيمة به في يوم الجمعة 22 رمضان 492هـ/ 12 آب 1099م، فاضطر الوزير الفاطمي الأفضل للفرار مع بعض رجاله، واتجه بحراً نحو مصر[2]. وبذلك تراجع النفوذ الفاطمي أمام تقدم الفرنج، فأعلن حكام عسقلان وقيسارية وأرسوف وعكا التبعية للفرنج وتعهدوا بدفع الجزية لهم[3].

(ب) تأسيس كونتية طرابلس
(أول ذي الحجة 503هـ/ 2 تموز 1109م)

سلكت الحملة الصليبية الطريق الساحلي نحو بيت المقدس متفادية الدخول في صراع مع المدن الساحلية: طرابلس وبيروت وصيدا وصور، حتى تتمكن بسرعة من دخول بيت المقدس وتتفرغ في ما بعد لاحتلال هذه المدن.

كان الهدف الرئيسي للفرنج هو احتلال بيت المقدس[4] دون إبطاء، لذلك لم يتعرضوا لمدينة طرابلس بسوء، واكتفوا بما أعطاهم إياه أميرها فخر الملك محمد بن عمار من المال والمؤن، مقابل أن لا يتعرضوا للغلات والأشجار. ثم تابعوا سيرهم نحو بيروت، وقام الأدلاء الموارنة، الذين رافقوهم من منطقة طرابلس، بارشادهم في الطريق

---

1 ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 127.
2 ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 137، ابن ميسر: أخبار مصر، ص 464.
3 ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 139.
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج 5، ص 167.
4 ـ اسطفان الدويهي: تاريخ الأزمنة، ص 93.
فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج 2، ص 228.
لبنان في التاريخ، ص 347.

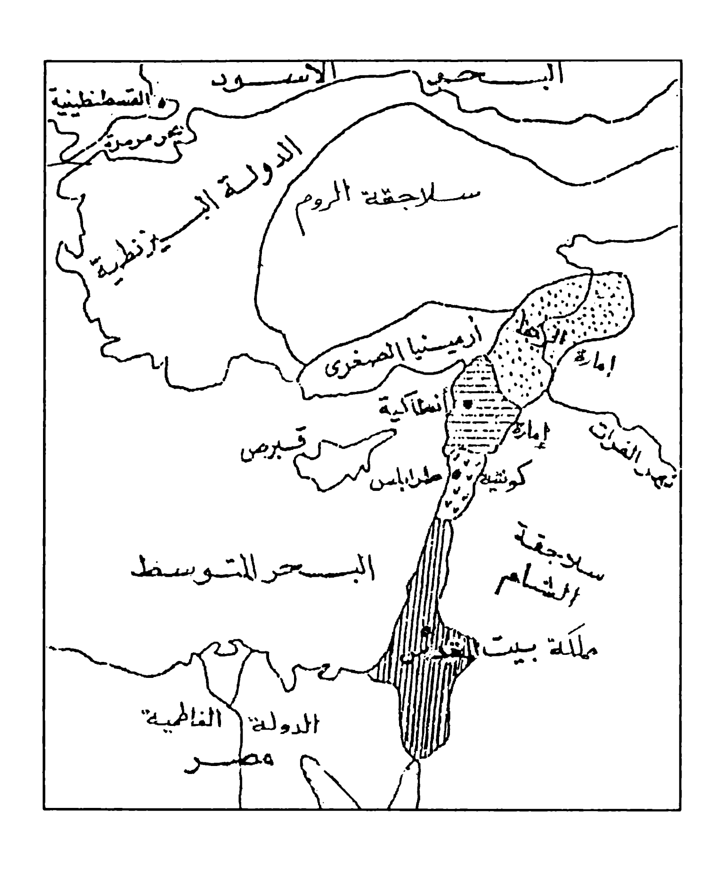
الساحلي حتى وصلوا بيروت سنة 491هـ/ 19 أيار 1098م. وفي بيروت حذا الحاكم الفاطمي حذو زميله في طرابلس، فأعطاهم كمية من المال، وجهزهم بوافر من المؤن، مقابل تعهد الفرنج بعدم التعرض لأهل بيروت المسلمين بسوء، وعدم الاعتداء على البساتين ومزارع الكروم والغلال[1].

حقق الصليبيون هدفهم الأول فاستولوا على مدينة القدس سنة 493هـ/ 1099م. وانكشفت سياسة الخداع الصليبية، عندما حاول ريموند الاستيلاء على طرابلس فلم يفلح، وكان يتولى طرابلس الأمير فخر الملك محمد بن عمّار. حاصر ريموند طرابلس سنة 495هـ/ 1101م، وسنة 497هـ/ 1103م، دون جدوى. وفي هذه الأثناء استسلمت مدينة جبيل بعد أن طلب صاحبها ابن صليحة الأمان. ثم شدد ريموند الحصار على طرابلس وبنى بالقرب منها حصناً عرف باسم حصن صنجيل، وهو الاسم الذي أطلقته المصادر العربية على ريموند الذي توفى اثناء الحصار وذلك سنة 499هـ/ 1105م. ومع ذلك شدد الفرنج الحصار على طرابلس، فاضطر صاحبها ابن عمار للتوجه إلى بغداد سنة 502هـ/ 1108م، طالباً النجدة من الخليفة المستظهر بالله العباسي، والسلطان محمد السلجوقي[2]، ولكنه لم يحصل على مبتغاه، فانصرف عائداً. وأثناء غيابه، تمكن الأسطول الفاطمي من السيطرة على طرابلس. ومع ذلك فشل الفاطميون أمام الحصار الصليبي، ومجيء برتراند بن ريموند بأسطول بحري، فتمكن من دخول المدينة عنوة في يوم الجمعة أول ذي الحجة 503هـ/ 2 تموز 1109م[3]، وقتل وسبى الأهالي. كما تم إحراق مكتبتها المشهورة بدار العلم، والتي كانت تحتوي على أكثر من مليون مخطوط في المعارف الإنسانية.

بتأسيس الكيانات الصليبية الأربعة في بيت المقدس والرها وانطاكية وطرابلس، حققت الحملة الصليبية الأولى ما لم تحققه الحملات السبع التي تلتها. كما ظهر جلياً هدف الغرب الصليبي من تكوين مملكة وإمارتين وكونتية في المشرق العربي الإسلامي[4].

---

1 ـ محمد علي مكي: لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، ص 110، 111.
2 ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 165.
3 ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج 5 ص 180.
4 ـ عصام شبارو: تاريخ المشرق العربي الاسلامي، ص 102.



مملكة بيت المقدس
وإمارتا الرها وأنطاكية وكونتية طرابلس[1]

---

1 ـ عصام شبارو: تاريخ المشرق العربي الإسلامي، ص 103.

(ج) سقوط بيروت
(21 شوال 503هـ/ 13 أيار 1110م)

بوفاة غودفروا سنة 494هـ/ 1100م، توج أخوه بودوين الأول أمير الرها ملكاً على بيت المقدس (494 ـ 512هـ/ 1100 ـ 1118م)، فتمكن من احتلال أرسوف وقيسارية سنة 495هـ/ 1101م، ثم عكا سنة 498هـ/ 1104م، وحاول فتح مدينة بيروت سنة 495هـ/ 1101م، لكنه أخفق أمام صمود المسلمين فيها وفشل في الاستيلاء عليها[1].

كان سقوط طرابلس بيد الفرنج درساً للفاطميين، لذلك لم تكد تصل الأخبار إلى الأفضل الفاطمي بزحف الفرنج نحو بيروت سنة 503هـ/ 1110م، بقيادة بودوين الأول ملك بيت المقدس وبرترام بن صنجيل وجوسلين صاحب تل باشر[2]، حتى أرسل الأسطول المصري لنجدة بيروت، التي حوصرت 11 يوماً. وقيل أن الحصار استمر مدة شهرين براً وبحراً حتى سقطت بيروت[3].

لم يكن الاستيلاء على بيروت أمراً سهلاً، فالمسلمون دافعوا ببسالة عن مدينتهم، وعندما صنع الفرنج برجاً من خشب صنوبر بيروت، ونصبوه على سور المدينة، كسره المسلمون بحجارة المنجنيق. وفي هذه الأثناء، أرسل الأفضل الفاطمي أسطولاً مصرياً، يتألف من 19 مركباً، لنجدة المسلمين في بيروت.

تغلب الأسطول الفاطمي على مراكب الفرنج، واستولى المسلمون على بعضها، ثم أفرغت شحنة تلك السفن من القوت والمؤن والعدد والسلاح، فقويت نفوس أهل بيروت واشتدت عزائمهم، وبدأوا يقومون بهجمات عنيفة على الفرنج الذين يحاصرون بيروت. وعندئذ استنجد الملك بودوين الأول بالجنوية، الذين طالما سخروا سفنهم في خدمة الحركة الصليبية، فأتوه في أربعين مركباً مشحونة بالمقاتلين، ونصبوا عليها مائة

---

1 ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 10، ص 345.
2 ـ العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص 115.
3 ـ اسطفان الدويهي: تاريخ الأزمنة، ص 101.

منجنيق، كما نصبوا برجين من خشب الصنوبر على أسوار المدينة، واشتدوا في حصارهم لبيروت وأخذوا يمطرونها بقذائف الحجارة المدمرة[1]. واستشهد في المعركة، مقدم الأسطول المصري وعدد كبير من رجاله، ولكن المعركة تحدد مصيرها أمام ضخامة الحشود الصليبية، فانهزم المسلمون، ودخل الفرنج بيروت قهراً، قتلاً وأسراً ونهباً[2]، يوم الثلاثاء 21 شوال 503هـ/ 13 أيار 1110م.

بلغ عدد القتلى الذين استشهدوا، من أهل بيروت، عشرين ألفاً، ولم يكتف بودوين الأول بما فعله في بيروت، بل أخرج الأسرى جميعاً خارج المدينة، وضرب أعناقهم في اليوم التالي من سقوط بيروت[3].

(د) سقوط صيدا
(جمادي الثانية 504هـ/ كانون الأول 1110م)

سقطت صيدا أيضاً، بعد أن خاف أهلها أن يصيبهم ما أصاب بيروت[4] وأهلها، فدخلها الفرنج في جمادي الثانية 504هـ/ كانون الأول 1110م، بعد حصار بري ـ بحري استمر ستة أسابيع.

(هـ) سقوط صور
(23 جمادي الأولى 518هـ/ 8 حزيران 1124م)

صمدت صور بسبب مساعدة الأسطول الفاطمي لها، وفشل الفرنج في دخولها سنة 504هـ/ 1111م.

توسعت مملكة بيت المقدس في عهد بودوين الثاني (512 ـ 525هـ/ 1118 ـ

---

1 ـ العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص 115.
2 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 16.
ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 138.
3 ـ طنوس الشدياق: أخبار الأعيان، ج 2، ص 295.
4 ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 10. ص 479.

1131م)، لتشمل مدينة صور التي سقطت بعد حصار دام خمسة أشهر، في يوم الثلاثاء 23 جمادي الأولى 518هـ/ 8 حزيران 1124م، بسبب تقاعس الأسطول الفاطمي في مساعدتها، في حين تمكنت الدولة الفاطمية من الاحتفاظ بعسقلان حتى سنة 548هـ/ 1153م، عندما فشل أسامة بن منقذ في الدفاع عنها، وآلت السيطرة عليها إلى بودوين الثالث ملك بيت المقدس[1]. وتعتبر عسقلان آخر مناطق النفوذ الفاطمي في جنوب بلاد الشام.

وهكذا تحولت بيروت وصيدا وصور إلى بارونيات صليبية، بعد نزع الطابع الاسلامي عنها. فسمي أول أسقف كاثوليكي لمدينة بيروت سنة 505هـ/ 1112م، وبعد سقوط صور، أصبح أساقفة بيروت وصيدا وعكا مساعدين لرئيس أساقفة صور[2].

(و) تأسيس حصون وقلاع الفرنج في لبنان

اكتمل نمو مملكة بيت المقدس في الفترة (494 ـ 525هـ/ 1100 ـ 1131م)، حيث امتدت من بيروت شمالاً إلى العريش جنوباً، وأضحت إمارتا الرها وأنطاكية وكونتية طرابلس تابعة لمملكة بيت المقدس. وبسقوط عسقلان سنة 548هـ/ 1153م، تمت السيطرة الصليبية الكاملة على ساحل بلاد الشام من الاسكندرونة شمالاً حتى غزة جنوباً، بما فيه الساحل اللبناني.

أسس الفرنج الحصون والقلاع في المناطق التي احتلوها، سواء على الساحل أو في الداخل، وكان قائد القلعة وحاميتها يسيطر على المنطقة المحيطة بها، فكانت القلاع طريقاً للتوسع الفرنجي أول الأمر، ثم اصبحت وسيلة للدفاع عن مملكة بيت المقدس والإمارات التابعة لها. وأدرك الفرنج ضرورة إقامة التحصينات الساحلية لتأمين الإمدادات البحرية من الغرب الفرنجي، لذلك اقاموا أبراجاً عند مدخل الموانىء البحرية

---

1 ـ أسامة بن منقذ: الاعتبار، ص 14 ـ 16.

2 ـ عصام شبارو: تاريخ بيروت، ص 66.

في عكا وصور وصيدا، وقلاعاً تحيط بالموانىء من جهة البحر. وعلى هذا الأساس أعاد الفرنج بناء قلعة البحر في صيدا سنة 626هـ/ 1228م، وكان يربطها بالمدينة جسر. والحقيقة أن معظم القلاع والحصون الصليبية لم تكن سوى ترميمات أو إعادة بناء لقلاع وحصون عربية أو رومانية.

وبنى هوغ دوسان أومر حاكم طبرية قلعة تبنين سنة 501هـ/ 1107م، وقد عرفها الغرب الفرنجي باسم قلعة طورون، وبنيت قلعة دوبي أو دوبو بين بلدتي حولا وشقراء على أنقاض بناء روماني قديم. أما قلعة شقيف أرنون فقد بنيت قبل قدوم الفرنج في أعلى مرتفعات الشقيف، وتشرف على مواقع كثيرة مما جعلها تتمتع بوضع استراتيجي فريد من نوعه. وقد أعاد الفرنج تجديد بناء القلعة وأطلقوا عليها اسم بوفور أي الحصن الجميل، وقيل إن فولك دو ألينو ملك بيت المقدس (525 ـ 537هـ/ 1131 ـ 1142م) هو الذي أعاد بناءها سنة 530هـ/ 1135م. كما شيّد باغانوس حصن الكرك سنة 535هـ/ 1140م[1].

وفي سنة 575هـ/ 1179م، بنى أونفري الثالث قلعة هونين، وأطلق عليها اسم الحصن الجديد وهو يشرف على الحولة. وبنى الفرنج أيضاً قلعة مارون على أنقاض قلعة رومانية غرب دير كيفا في قضاء صور، وقلعة أبي الحسن المعروفة بقلعة الموت قرب صيدا سنة 577هـ/ 1181م، هذا فضلاً عن الحصون والقلاع التي كانت تحمي المدن التي احتلها الفرنج.

تأسست مملكة بيت المقدس وإمارتا الرها وأنطاكية وكونتية طرابلس، وسط انقسام الأمراء المسلمين بين الخلافة العباسية السنية في بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة. واستمرت الكيانات الصليبية رغم قلة مواردها من الرجال والمال بسبب اختلاف الأمراء المسلمين حول السلطة والنفوذ[2]. لكن المشرق العربي الإسلامي ما لبث أن أخرج ثلاثة من كبار القادة، هم: عماد الدين زنكي الذي رسم بعض ملامح

---

1 ـ عصام شبارو: تاريخ المشرق العربي الإسلامي، ص 105.

2 ـ ابن الجوزي: المنتظم، ج 9 ص 15 ـ 26. ابن العماد: شذرات الذهب، ج 3، ص 367.

مشروع وحدوي عسكري بعدما استرجع الرها سنة 539هـ/ 1144م، وابنه نور الدين محمود الذي بدأ مسيرة الوحدة بين مصر وبلاد الشام، ليحققها صلاح الدين الأيوبي ويدخل بعدها إلى بيت المقدس سنة 583هـ/ 1187م. وعلى أيدي هؤلاء حلّت الهزائم بالفرنج حتى أجلاهم المماليك نهائياً سنة 690هـ/ 1291م.

(ز) استمرار الموجات العربية نحو لبنان

أدت التغيرات التي حدثت إثر الحملة الصليبية الأولى، إلى ترسيخ الحضور العربي، دون أن تؤثر فيه حركة الاستيطان الفرنجي من الغريب القادم من غرب أوروبا، فقد ذابت هذه الحركة في خضم الموجات العربية المتتابعة إلى لبنان وبلاد الشام.

ومن أبرز هذه الموجات العربية، بنو معن، الذين نزلوا في جبل الشوف، في أعقاب الحملة الصليبية الأولى، وكان لهم دور بارز في التصدي لها. كما شهدت تلك الفترة من حكم الفرنج، قدوم الشهابيين من حوران إلى وادي التيم، مكملة سلسلة الموجات العربية الجديدة التي دفعها مجيء الفرنج من غرب أوروبا، إلى المجيء إلى لبنان والاستقرار فيه، مشكلة العنصر الأساسي في تكوينه السكاني.

2 ـ عماد الدين زنكي واسترداد امارة الرها (521 ـ 541هـ/ 1127 ـ 1146م)

ينتمي عماد الدين زنكي إلى أسرة تركية، وقد تولى أبوه آقسنقر[1] ولاية الموصل ثم حلب زمن السلطان السلجوقي ملكشاه بن ألب أرسلان، ليلقى مصرعه سنة 489هـ/ 1096م في المعركة التي دارت قرب الري بين بركياروق بن ملكشاه وعمه تتمش، وكان عماد الدين زنكي في العاشرة من عمره آنذاك.

ظهرت فروسية عماد الدين زنكي في سن مبكرة بعد أن التف حوله مماليك أبيه وشمله كربوغا والي الموصل بالعطف والرعاية، وذاع صيته حين اشترك في قتال

---

1 ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج 1، ص 241.

الفرنج عند طبرية سنة 506هـ/ 1112م، فأظهر بسالة وشجاعة في القتال والفروسية. وكافأه السلطان محمود السلجوقي بأن أقطعه البصرة وواسط، ليعمل في خدمته حتى صار أتابكاً (وصياً) لاثنين من أبناء السلطان الذي عينه سنة 521هـ/ 1127م أميراً على الموصل والجزيرة. وبذلك نشأت أتابكية الموصل التي حكمها عماد الدين زنكي في الفترة (521 ـ 541هـ/ 1127 ـ 1146م)، وقد استهل حكمه بتنظيم إمارته حسب النظم السلجوقية، واعتمد على معرفة الأخبار بما أوجده من نظام التجسس، كما جمع حوله خيرة الرجال[1].

تطلع عماد الدين زنكي لإقامة إمارة مستقلة عن السلاجقة. وكانت الموصل القريبة من أملاك السلاجقة لا تكفي لتحقيق هذا الهدف، لذلك توجه نحو حلب التي تمتاز بموقعها الاستراتيجي في مواجهة الفرنج في أنطاكية والرها. ولم يلبث أن دخل حلب سنة 522هـ/ 1128م[2] وعين عليها أبا الحسن علي بن عبد الرزاق. وهكذا أصبح عماد الدين زنكي أتابك الموصل وحلب مسؤولاً عن حركة الجهاد ضد الفرنج فدعا إلى توحيد جهود المسلمين ونبذ ما بينهم من منازعات، وهذا لا يتم إلا بالقوة.

توالت انتصارات عماد الدين زنكي على الفرنج عند اللاذقية سنة 530هـ/ 1136م، وفتح قلعة بعرين قرب حماه والمعرّة وكفر طاب سنة 531هـ/ 1137 م، كما فتح حصن عرقة وهو من أعمال طرابلس سنة 532هـ/ 1138م، ثم تسلم بعلبك وقلعتها بالأمان سنة 533هـ/ 1139م.

كانت إمارة الرها آنذاك تحت حكم جوسلين الثاني، وهي أول إمارة صليبية أقيمت في المشرق العربي الإسلامي. وأدرك عماد الدين أهمية استعادتها، كما أدرك أن الفرنج في مملكة بيت المقدس وإمارة أنطاكية وكونتية طرابلس سيرسلون النجدة إذا ما هاجم الرها، لذلك أوهم الفرنج بانهماكه في محاربة ديار بكر، فاطمأن جوسلين الثاني

---

1 ـ عصام شبارو: تاريخ المشرق العربي الإسلامي، ص 110.
2 ـ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص 37،38.
ابن واصل: مفرج الكروب، ج 1، ص 34 ـ 36.86

وخرج من مدينة الرها. وكانت عيون عماد الدين تأتيه بالأخبار، فأسرع إلى مدينة الرها وحاصرها ثمانية عشر يوماً حتى أخذها عنوة، كما حاصر قلعتها وسيطر عليها.

كان لسقوط الرها سنة 539هـ/ 1144م[1] أثر كبير في رفع معنويات المسلمين وتصميمهم على القتال، لذلك يمكن اعتبار عماد الدين زنكي أول من وضع أساس حركة الجهاد ضد الفرنج. في حين كان ضياع الرها من أيدي الفرنج باعثاً على إرسال الحملة الصليبية الثانية سنة 542هـ/ 1147م، أي بعد وفاة عماد الدين زنكي بسنة واحدة.

كان على عماد الدين زنكي أن يخضع أتابكية دمشق «الدولة البورية» التي اتبعت سياسة المحافظة على مصالحها عن طريق تحالفها مع مملكة بيت المقدس ومهادنة الفرنج. ولكن هذا الأمر لم يتحقق إلا في عهد ابنه نور الدين محمود الذي أفشل الحملة الصليبية الثانية سنة 543هـ/ 1148م، وقضى على أتابكية دمشق سنة 549هـ/ 1154م[2].

3 ـ نور الدين محمود بن زنكي ومشروع توحيد مصر وبلاد الشام (541 ـ 569هـ/ 1146 ـ 1174م)

قتل عماد الدين زنكي على يد جماعة من مماليكه ليلاً وهو يحاصر حصن جعبر المطل على نهر الفرات، وذلك سنة 541هـ/ 1146م. وكانت أتابكيته قد شملت الموصل وحلب ومدينة الرها وبلاد الفرات الشرقية. وبعد وفاته انقسمت بين ولديه، فحصل ابنه الأمير غازي على القسم الشرقي ومقره مدينة الموصل حيث استمرت أتابكية الموصل (541 ـ 660هـ/ 1146 ـ 1262م). في حين حصل ابنه الأصغر نور الدين محمود على القسم الغربي ومقره مدينة حلب، وكانت أملاكه تتاخم الدولة البورية في دمشق، لذلك تابع عمل أبيه في القضاء على أتابكية دمشق لتوحيد كلمة المسلمين في بلاد الشام. ثم تطلع إلى مصر لتصبح الوحدة أقوى وأمتن في حركة الجهاد ضد الفرنج، لكن لم يتسن له تحقيق

---

1 ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 279. ابن واصل: مفرج الكروب، ج 1، ص 95.
2 ـ عصام شبارو: تاريخ المشرق العربي الإسلامي، ص 113.

هذه الوحدة الكبرى تحت راية آل زنكي، بل حققها أحد أتباعه ويدعى صلاح الدين الأيوبي الذي أسس الدولة الأيوبية في مصر والشام.

(أ) فشل الحملة الصليبية الثانية (541 ـ 543هـ/ 1146 ـ 1148م)

كان سقوط إمارة الرها سنة 539هـ/ 1144م وانتصارات المسلمين، باعثاً على الحرب الصليبية الثانية. وكان جوسلين الثاني، صاحب الرها بناحية تل باشر وما يجاورها، فراسل أهل الرها وحملهم على العصيان ضد المسلمين وتسليم المدينة إليه، فأجابوه إلى طلبه، فسار بجيشه إلى الرها فتسلمها. وامتنعت عليه القلعة التي تضم المسلمين، فحاصرها وطلب النجدة من الفرنج في بلاد الشام، لكن نور الدين محمود خرج من حلب مسرعاً نحو الرها ليدخلها في سنة 541هـ/ 1146م، بعد أن هرب جوسلين الثاني عائداً إلى بلاده.

تعتبر استعادة الرها من الفرنج سنة 539هـ/ 1144م وتأكيد السيطرة الإسلامية عليها سنة 541هـ/ 1146م، كارثة مروعة حلّت بالفرنج، لأن للرها ما يقرب مما لبيت المقدس من القداسة في مخيلة العالم المسيحي، فهي تمت بأصولها إلى المسيحية الأولى، وهي أول إمارة أقامها الفرنج في المشرق العربي الإسلامي، وهي الخط الدفاعي الأول من ناحية الشرق. فلا غرو أن يعتبر الغرب الأوروبي سقوط الرها كارثة تنذر بما هو أشد هولاً.

كان الفرنج قد اجتمعوا في بيت المقدس، وأرسلوا وفداً إلى البابا ايوجين الثالث يطلبون منه إرسال حملة صليبية، فأخذ البابا يحرض ملوك أوروبا من أجل نجدة إخوتهم المسيحيين في المشرق، وذلك عن طريق مساعده القديس برنارد، فاستجاب لويس السابع ملك فرنسا، كما استجاب كونراد الثالث ملك ألمانيا، واتفقا على تجميع قواتهما في القسطنطينية[1].

حلت الهزيمة بالحملة الصليبية قبل وصولها إلى بلاد الشام، فقد تمكن السلاجقة من هزيمة الجيش الألماني في آسيا الصغرى، ثم هزيمة الجيش الفرنسي في اقليم فيرجيا.

---

1 ـ عصام شبارو: تاريخ المشرق العربي الاسلامي، ص 114.

فاضطر من تبقى من الألمان لسلوك الطريق البحري نحو عكا ثم بيت المقدس، ومن تبقى من الفرنسيين سلك الطريق البحري نحو أنطاكية ومنها إلى بيت المقدس سنة 542هـ/ 1147م. فتحولت الحملة عن هدفها الرئيسي وهو استعادة الرها، إلى حصار دمشق سنة 543هـ/ 1148م، بعد أن توجه لحصارها الملوك الثلاثة، بودوين الثالث، كونراد الثالث، ولويس السابع.

كان يتولى حكم دمشق مجير الدين آبق بن محمد بن بوري بن طغتكين، وعرف بضعفه وعجزه في تدبير شؤون الدولة، فسيطر أحد مماليك جده طغتكين ويدعى معين الدين أنر على زمام الأمور، وطلب النجدة من نور الدين محمود وأخيه غازي. استطاع معين الدين أن يبذر الشقاق بين الملوك الثلاثة بفضل الرشاوي والوعود بدفع الأتاوة السنوية. وكان بودوين الثالث يدرك مدى قوة نور الدين محمود الذي خرج بجيشه من حلب، كما خرج أخوه غازي بقواته من الموصل، لذلك رفع الحصار عن دمشق بعد أربعة ايام، مما أغضب كونراد الثالث ولويس السابع اللذين كانا يبحثان عن نصر يعوضهما هزيمتهما في آسيا الصغرى. وعاد كل منهما إلى بلاده يجر وراءه أذيال الخيبة والفشل[1].

تابع نور الدين محمود انتصاراته بعد أن حلت الهزيمة بأمير أنطاكية ريموند دو بواتيه الذي لقي مصرعه في موقعة آنب سنة 544هـ/ 1149م وأمر بوضع رأس ريموند وذراعه الأيمن في صندوق من الفضة ليرسله إلى الخليفة المقتفي لأمر الله العباسي في بغداد[2].

(ب) تعرض المدن اللبنانية الساحلية للزلازل (546 ـ 551هـ/ 1151 ـ 1157م)

تعرضت المدن الساحلية اللبنانية لسلسلة من الزلازل العنيفة التي بدأت منذ سنة

---

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب، ج 1، ص 121.
2 ـ وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 774.

546هـ/ 1151م، حتى سنة 551هـ/ 1157م. وقد أدت هذه الزلازل إلى هبوط القشرة الأرضية في عدة مواضع من الساحل، وعلى الأخص في بيروت وقيسارية وصور وصيدا وجبيل، وتخرَّب قسم كبير من هذه المدن. وكان اشد هذه الزلازل عنفاً وتدميراً، زلزال بيروت، الذي وقع في 9 شعبان 551هـ/ 1157م، وخرَّب مبانيها، وقتل العديد من سكانها[1].

(ج) القضاء على الدولة البورية في دمشق وتوحيد بلاد الشام (549 ـ 559هـ/ 1154 ـ 1164م)

كان مجير الدين آبق، آخر أتابكة الدولة البورية في دمشق، قد لجأ بعد وفاة معين الدين أنر للتحالف مع مملكة بيت المقدس حيث كان يدفع لها أتاوة سنوية. فقضى نور الدين على هذا التحالف وعلى الدولة البورية معاً سنة 549هـ/ 1154م.

طلب مجير الدين آبق مساعدة الفرنج لفك الحصار عن دمشق، لكن نور الدين تمكن من دخولها قبل وصول النجدة، فالتجأ مجير الدين إلى القلعة، واستسلم بعد أن حصل على الأمان، ورحل إلى حمص ومنها إلى بغداد حيث سكن فيها إلى حين وفاته. ثم تراجع الفرنج بعد أن أيقنوا من انتصار نور الدين والقضاء على الدولة البورية في دمشق[2].

وفي سنة 559هـ/ 1164م، استطاع نور الدين محمود أن يدخل حارم بعد إنزال الهزيمة بريموند صاحب طرابلس، ومعه بوهمند الثالث أمير أنطاكية الذي وقع أسيراً ثم أطلق سراحه مقابل فدية مالية كبيرة وإطلاق الأسرى المسلمين.

كما تمكن نور الدين محمود من فتح بانياس، وبذلك تمت له وحدة بلاد الشام، ولم يعد أمامه سوى أن ينزل الهزيمة بمملكة بيت المقدس، وهذا لا يتم إلا بوحدة مصر وبلاد الشام. وهكذا تملكت نور الدين فكرة السيطرة على مصر وإعادتها إلى المذهب

1 ـ عصام شبارو: تاريخ بيروت، ص 66.
2 ـ ابن واصل: مفرج الكروب، ج 1، ص 283.

السني لتطويق مملكة بيت المقدس.

(د) تعاون أمير الغرب كرامة بن بحتر مع نور الدين محمود ضد الفرنج

كان أمير الغرب يحكم القرى الجبلية حول بيروت في فترة الاحتلال الفرنجي، في حين احتفظ الفرنج بمدينة بيروت نفسها. وكان أمراء الغرب، رغم سيطرة الفرنج على بيروت، يتمسكون بحكام دمشق، خاصة عندما تقوى شوكة المسلمين فيها، كما حصل باستيلاء نور الدين محمود على دمشق، فأعطى أمير الغرب كرامة بن بحتر[1] مرسوماً مطلقاً، يشكره فيه على تعاونه معه ضد الفرنج[2]، عندما اتجه الأسطول الفاطمي نحو بيروت سنة 552هـ/ 1157م[3]، وانتصر على سفن الفرنج، وأسر منهم أعداداً كبيرة، وغنم غنائم لا حصر لها. كما هاجم عكا وأسر نحو سبعمائة من الفرنج.

وفي سنة 556هـ/ 1161م، أقر نور الدين محمود، أمير الغرب كرامة بن بحتر على قرى الغرب والقنيطرة وثعلبايا في البقاع وظهر حمار في وادي التيم وبرجا من صيدا وبعاصر[4]. وبما أن الملك العادل نور الدين كان مشهوراً بقتاله الفرنج، فإن أمير الغرب كرامة بن بحتر، المتعاون معه ضدهم، اضطر إلى التحصن في حصن سرحمور[5].

وقد دفع أمراء الغرب الثمن غالياً لوقوفهم ضد الفرنج، فقد استطاع صاحب بيروت الأمير البيزنطي أندرونيكوس كومنينوس، أن يهادن أولاد كرامة بن بحتر، ويستدرجهم ويخدعهم بصداقته لهم، فكانوا يجتمعون معه في الصيد. وذات مرة دعاهم إلى زفاف ولده، فقصد بيروت الثلاثة الكبار من أبناء كرامة بن بحتر، أما الرابع ويدعى

---

1 ـ كرامة بن بحتر: هو زهر الدولة أبو العز كرامة بن بحتر بن علي، سكن حصن سرحمور، وكان متمسكاً بالملك العادل نور الدين. وأخوه هو علي بن بحتر والد زين الدين بن علي ومن ذريته الأمراء بعرامون.
صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 42 ـ 44.

2 ـ المصدر نفسه، ص 43.

3 ـ العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص 125.

4 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 43.

5 ـ المصدر نفسه، ص 44.

جمال الدين حجي، فبقي مع أمه في حصن سرحمور. واقام صاحب بيروت حفل الزفاف في بستان خارج المدينة، وحضره الكثير من أمراء الفرنج، ثم أدخل الثلاثة إلى مجلس خاص وقتلهم[1].

ولم يكتف بهذه الجريمة، فهاجم عند الصباح، حصن سرحمور، ونهبه وهدمه، ثم أحرق قرى الغرب وأسر من تخلف عن الهرب؛ وكان ذلك في أواخر حكم نور الدين محمود. وهكذا شهدت بيروت والجبال المحيطة بها، أبشع مجزرة نفذها الفرنج في أبناء كرامة بن بحتر، وكأنهم يريدون القضاء على نسل أمراء الغرب. ولم ينج من أسرة كرامة بن بحتر سوى ابنه الصغير جمال الدين حجي[2]، وكان عمره يناهز السبع سنين عندما هرب مع أمه من حصن سرحمور.

(هـ) حملات أسد الدين شيركوه ودخول مصر (559 ـ 564هـ/ 1164 ـ 1169م)

أيقنت جميع الأطراف المتصارعة على ارض بلاد الشام، أهمية مصر عسكرياً ومادياً في تحقيق النصر النهائي في الحروب الصليبية، لذلك كان التنافس حول السيطرة عليها.

كانت الخلافة الفاطمية تعيش أواخر أيامها في ظل آخر خلفائها العاضد لدين الله، فأرسل نور الدين محمود ثلاث حملات بقيادة أسد الدين شيركوه في السنوات 559هـ/ 1164م و 562هـ/ 1167م و 563هـ/ 1168م[3]. لكن أملريك ملك بيت المقدس رد بثلاث حملات لمنعه من دخول مصر حتى يتسنى له احتلالها. ومع ذلك

---

1 ـ صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص 45.
2 ـ المصدر نفسه، ص 45 ـ 49.
3 ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج 5، ص 346،348.
أبو شامة: الروضتين، ج 1، ص 130، 131، 145.
عمارة اليمني: النكت العصرية، ص 73 ، 81.
ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص 65 ، 68.

تمكن أسد الدين شيركوه من دخول مصر وتولي وزارتها سنة 564هـ/ 1169م. وكان ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي يساعده في مباشرة الأمور. وقد اعتبر أسد الدين شيركوه نفسه نائباً لنور الدين في مصر، وأنه تقلد الوزارة باسمه، لكنه لم يستمر في منصبه سوى شهرين وخمسة أيام حيث توفى في يوم الأحد 22 جمادي الثاني 564هـ/ 23 آذار 1169م.

بعد وفاة أسد الدين، أسرع العاضد لدين الله الفاطمي إلى تقليد صلاح الدين الأيوبي الوزارة في يوم الأربعاء 25 جمادي الثانية 564هـ/ 26 آذار 1169م، واتخذ صلاح الدين لقب الملك الناصر[1].

واستمر صلاح الدين، مثل عمه أسد الدين، يتولى الوزارة بصفته نائباً عن نور الدين محمود. وكانت الخطبة في مصر باسم الملك العادل نور الدين محمود بعد ذكر الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله.

(و) القضاء على الخلافة الفاطمية وتوحيد مصر وبلاد الشام (7 محرم 567هـ/ 10 أيلول 1171م)

أرسل الخليفة المستنجد بالله العباسي في بغداد إلى نور الدين معاتباً على تأخير إقامة الدعوة له في القاهرة، فاغتنم نور الدين فرصة ذهاب نجم الدين أيوب والد صلاح الدين إلى القاهرة، وبعث معه برسالة يحث فيها صلاح الدين بالتعجيل بإقامة الخطبة للخليفة العباسي، لكن صلاح الدين اعتذر إليه بحجة الخوف من معارضة أهل مصر لميلهم إلى الفاطميين، فلم يقبل نور الدين هذا العذر، بخاصة أن الخليفة المستنجد بالله توفى في يوم الأحد 9 ربيع الثاني 566هـ/ 20 كانون الأول 1170م فخلفه المستضيء بأمر الله العباسي. واتفق أن اشتد المرض في هذه الآونة على الخليفة العاضد لدين الله الفاطمي، لذلك أمر صلاح الدين جميع خطباء القاهرة ومصر بقطع الخطبة للعاضد لدين الله الفاطمي، وأن يخطب للمستضيء بأمر الله العباسي في يوم الجمعة 7 محرم 567هـ/ 10 أيلول 1171م. ثم توفي العاضد بعد ثلاثة أيام في يوم الاثنين 10 محرم

---

1 ـ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص 141.

567/ 13 أيلول 1171. دون أن يعلم بأنه آخر الخلفاء الفاطميين[1]. وبذلك تقلد نور الدين محمود حكم بلاد الشام ومصر من الخليفة العباسي المستضيء بأمر بالله، على أن يكون صلاح الدين الأيوبي نائبه في مصر[2].

وهكذا انتهت الخلافة الفاطمية في القاهرة، وعادت مصر تحت ظل الخلافة العباسية في بغداد، بعد خروجها منها حوالى القرنين من الزمان (362 ـ 567هـ/ 973 ـ 1171م).

لكن هذه الوحدة، ما لبثت وأن فشلت سريعاً في نفس السنة التي تحققت فيها. فقد كان صلاح الدين، مع تظاهره في تأييد سلطة الخلافة العباسية عموماً، وسلطة نور الدين محمود خصوصاً، لا يفتر ساعياً إلى إتمام مقاصده التي كانت لا تزال تحت طي الخفاء، وهي استقلاله بمصر، فأخذ في إعداد القوات التي ستمكنه من تحقيق هذا الاستقلال. ومن جهة أخرى ظل نور الدين محمود حانقاً على صلاح الدين لأنه رأى منه فتوراً في محاربة الفرنج، فأرسل إلى أمراء الموصل وديار بكر وبلاد الجزيرة يطلب العساكر إلى مصر لإخراج صلاح الدين منها. فظهر بوضوح مدى أطماع هؤلاء الأمراء ومصالحهم الشخصية، حيث كان كل منهم يسعى إلى توسيع إمارته على حساب أمير آخر، وحده صلاح الدين كان يسعى إلى الوحدة ثم التحرير على منوال سيده نور الدين الذي ما لبث وأن توفى بقلعة دمشق في يوم الأربعاء 11 شوال 569هـ/ 15 ايار 1174م. وبذلك اصبح صلاح الدين الأيوبي الذي اعترف بشرعيته الخليفة العباسي سنة 570هـ/ 1175م، هو المؤهل لحمل راية الجهاد ضد الفرنج عن طريق الوحدة ثم التحرير.

4 ـ الناصر صلاح الدين الأيوبي وتحرير المدن اللبنانية (569 ـ 589هـ/ 1174 ـ 1193م)

يعتبر تاريخ الدولة الأيوبية التي امتدت حوالى ثلاثة أرباع القرن (569 ـ

1 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1، ص 46.
2 ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 11، ص 482.

648هـ/ 1174 ـ 1250م)، من أهم المراحل التاريخية التي عرفها المشرق العربي الإسلامي وهو يواجه حملات صليبية متتابعة على يد أقوى ملوك غرب أوروبا، وهي الحملات المعروفة بالثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، التي تجلت فيها فكرة السيطرة والتوسع بأوضح صورها. كما يعتبر صلاح الدين مؤسس هذه الدولة، من أهم مراحل تاريخ الحروب الصليبية، ومن أهم عصور البشرية الزاخرة بالبطولة والانسانية في مواجهة أعداء هذا المشرق.

لم يكن بوسع صلاح الدين الأيوبي أن يواجه الفرنج وهم في ذروة قوتهم، لولا تحقيق وحدة المشرق، فقد أدرك ما للخلافة من قوة روحية، وما جرى من انقسامها بين الخلافة العباسية السنيّة والخلافة الفاطمية الشيعية، لذلك بدأ مسيرة الجهاد بالقضاء على الخلافة الفاطمية في مصر وتوحيد مصر والشام تحت راية الخلافة العباسية.

(أ) تحرير الشقيف وتبنين وصيدا وبيروت وجبيل
(583هـ/ 1187م)

حاول صلاح الدين الأيوبي استعادة بيروت سنة 578هـ/ 1182م، فسار إليها من دمشق، ونهبها من البر[1]، في حين حاصرها بأسطوله البحري المصري المؤلف من ثلاثين سفينة. وفجأة ظهرت ثلاث وعشرون سفينة للفرنج، فانسحب الأسطول المصري، ورفع الحصار، ليعود صلاح الدين إلى دمشق. ويرجع هذا الفشل لعدم اشتراك القوتين البرية والبحرية سوياً في الهجوم على بيروت.

وبعد خمسة أعوام، بدأ صلاح الدين انتصاراته العظيمة في حطين سنة 583هـ/ 1187م، على قوى الفرنج مجتمعة ومنها قوة ابلين صاحب بيروت الذي فرَّ من المعركة. واستغل صلاح الدين انتصاره هذا، فاستولى على عكا ثم الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والغولة ومجدليابة ويافا وتبنين، ثم زحف إلى صيدا.

---

1 ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 11، ص 482.

وعندما وصل خلدة لاقاه جمال الدين حجي، وحاصر بيروت ثمانية أيام[1]، ونصب عليها المنجانيق، حتى سأله الفرنج الأمان فآمنهم، فدخل بيروت صلحاً في 29 جمادى الأولى 583هـ/ 6 آب 1187م، وتوجه الفرنج بأمانه من بيروت إلى صور[2].

وبعد فتح بيروت التقى صلاح الدين بأمير الغرب جمال الدين حجي، ولمس رأسه بيده قائلاً كلمته المشهورة: «ها قد أخذنا ثأرك من الفرنج»[3]. وفي تلك السنة 583 هـ/ 1187م استسلم بيت المقدس أمام صلاح الدين.

والحقيقة أن البحرية المصرية تعاونت مع الجيوش الشامية، على استرداد عكا وبيروت وجبيل وعسقلان وغيرها من الثغور الساحلية. وكان صلاح الدين يهدف من تحرير المدن الساحلية، أن يحرم الفرنج من قواعدهم البحرية التي تربطهم بالعالم الخارجي، وخاصة غرب أوروبا قلب الحركة الصليبية، فيصبحوا محاصرين داخل بلاد الشام، ويسهل بالتالي القضاء عليهم. هذا فضلاً عن أن استيلاء صلاح الدين على موانىء الشام، سوف يمكنه من تحقيق الاتصال البحري السريع بين شطري دولته في مصر والشام، لذلك اهتم منذ بداية حكمه بإحياء البحرية الإسلامية، وتحصين الثغور الإسلامية، كسلاح مضاد للاحتلال الصليبي. فاستعان في بناء أسطوله بالخشب المحلي في مصر، وبأخشاب الصنوبر والأرز التي تنبت في جبل لبنان، فضلاً عن معدن الحديد الذي كان يستخرج من جبل قرب بيروت[4].

ولّى صلاح الدين الأيوبي، على بيروت، الأمير سيف الدين المشطوب[5]، ثم ولّى

---

1 ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 11، ص 543.
صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 19.
2 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 19.
3 ـ المصدر نفسه، ص 45.
4 ـ ابن شداد: الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ص 101.
5 ـ سيف الدين علي بن أحمد المشطوب الهكاري (ت 588هـ/ 1192م): كان أميراً جليل القدر، ومقدم الجيوش في سلطنة الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، وله مواقف في الحروب الصليبية. حضر مع اسد الدين شيركوه فتح مصر ولازم صلاح الدين إلى آخر عمره وأسره الصليبيون ففدى=

عليها الأمير أسامة بن منقذ[1].

ترك صلاح الدين الحرية لأهالي بيروت وغيرها من المدن التي حرَّرها من الفرنج، في أن يبقوا فيها أو يرحلوا، فآثر معظمهم الرحيل إلى صور، حيث اجتمع كل افرنجي بقي في الساحل.

(ب) دور بيروت في مساعدة عكا قبل سقوطها بيد الحملة الصليبية الثالثة (587هـ/ 1191م)

ارتكب صلاح الدين خطأ كبيراً، عندما ترك الفرنج يتجمعون في مدينة صور التي اشتد اهتمامهم بها وحصَّنوها، فتحولت إلى قاعدة لاسترداد ما فقدوه، ومركزاً للامدادات الصليبية القادمة من غرب أوروبا. وكانت صور بمثابة الثغرة التي نفذ منها الفرنج ليحاصروا عكا من جهة البر، في حين حاصرتها الأساطيل الأوروبية من جهة البحر سنة 585هـ/ 1189م. وتعتبر عكا موقعاً استراتيجياً هاماً، فإذا تم الاستيلاء عليها صار الطريق إلى بيت المقدس مفتوحاً أمام الفرنج.

لذلك اتجهت الحملة الصليبية الثالثة إلى عكا سنة 585هـ/ 1189م، وهي تضم أقوى ملوك غرب أوروبا الثلاثة: فردريك الأول امبراطور ألمانيا وهو الملقب باللحية الحمراء، وفيليب أغسطس ملك فرنسا، وريتشارد الأول[2] ملك انكلترة وهو الملقب بـ «قلب الأسد».

= نفسه بخمسين ألف دينار. وسمِّي المشطوب لشطبة في وجهه من أثر طعنة في إحدى غزواته وأقطعه صلاح الدين مدينة نابلس كلها وقد توفي فيها.
صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 20.
الزركلي: الأعلام، ج 4، ص 256.

1 ـ أسامة بن منقذ: هو عز الدين أسامة بن منقذ وهو غير مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن منقذ الكناني المتوفي سنة 584هـ/ 1188م (والواردة ترجمته في: الزركلي: الاعلام، ج 1، ص 291). وأخبار عز الدين أسامة بن منقذ في:
صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 20 ـ 22.

2 ـ عصام شبارو: تاريخ المشرق الإسلامي، ص 144، 145.

حاول صلاح الدين الأيوبي مساعدة عكا وفك الحصار عنها، معتمداً على مدينة بيروت، حيث برزت بطولة يعقوب الحلبي الذي خرج من بيروت[1] على رأس سفينة كبيرة، مشحونة بالآلات والميرة والرجال، لإمداد حامية عكا، فاعترضه ملك انكلترة ريتشارد قلب الأسد، وحاصره بأربعين سفينة، فقاتلهم المسلمون قتالاً عنيفاً، وحتى لا يستولي الفرنج على سفينة المسلمين، قال المقدم يعقوب: «والله لا نقتل إلا عن عز، ولا نسلم إليهم من هذه البطسة شيئاً»، ثم حطَّم المسلمون جوانب البطسة بالمعاول حتى فتحوها، فامتلأت بماء البحر، وغرق جميع من فيها، ولم يظفر ريتشارد قلب الأسد منها بشيء[2].

فكَّر صلاح الدين الأيوبي بحيلة، وكتب إلى متولي بيروت الأمير أسامة، فجهَّز سفينة كبيرة[3] كان قد غنمها من الفرنج، وكانت راسية بساحل بيروت. وبعد ترميمها، ملأها بالشحوم واللحوم، وأربعمائة غرارة غلة، وأحمال من النشاب والنفط. وركب في السفينة جماعة من أهل بيروت، تزيّوا بزي الفرنج، فحلقوا لحاهم، وعلَّقوا الصلبان مثل الرهبان، ووضعوا الخنازير على سطح السفينة بحيث ترى من بعيد. وتوجهت السفينة نحو عكا واختلطت بمراكب الفرنج، فلم يشك أحد بأمرها عندما اعترضتها هذه المراكب. ثم تابعت سيرها ودخلت ثغر عكا[4]. وبعد ذلك بقليل وصلت ثلاث سفن مصرية، فاخترقت مراكب الفرنج وأغرقت سفينة له، ودخلت ثغر عكا أيضاً. وكانت فرحة أهالي عكا عظيمة بوصول تلك السفن[5].

وقد ظهرت بطولات عديدة، أثناء مساعدة أهالي عكا المحاصرين، منها بطولة الضفدع البشري عيسى العوام[6]، وهو مجاهد نصراني كان يشد على وسطه الرسائل

1 ـ ابن واصل: مفرج الكروب، ج 2، ص 351.
2 ـ عصام شبارو: تاريخ بيروت، ص 75.
3 ـ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج 2، ص 161.
4 ـ المصدر نفسه، ج 2، ص 161.
5 ـ المصدر نفسه، ج 2، ص 160.
6 ـ المصدر نفسه، ج 2، ص 162.

والذهب، ثم يغوص ليلاً في البحر على غرة من الفرنج ويخرج من الجانب الآخر من مراكب الفرنج، ويدخل عكا حيث يسلم الرسائل إلى رجال الحامية، بينما كان الذهب يصرف نفقة للمجاهدين.

ومع ذلك سقطت عكا بيد الفرنج، ويتزعمهم ريتشارد قلب الأسد ملك انكلترة، في 17 جمادي الثاني 587هـ/ 12 تموز 1191م.

(ج) صلح (22 شعبان 588هـ/ 2 أيلول 1192م) وسيطرة الفرنج على المدن اللبنانية الساحلية باستثناء صيدا وبيروت وجبيل

بعد سقوط عكا، اشتد الصراع بين صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد، واستمرت الحروب بينهما حتى عقدا الصلح[1] سنة 588هـ/ 1192م، وهو بمثابة هدنة بين الفريقين، مدتها ثلاث سنوات وثلاثة أشهر وثلاثة أيام، تبدأ اعتباراً من 22 شعبان 588هـ/ 2 أيلول 1192م، وعلى أن تكون المدن الساحلية الممتدة من صور حتى يافا في الجنوب للفرنج، وما عدا ذلك بما فيه بيت المقدس يبقى للمسلمين. وبذلك سقط الساحل اللبناني بيد الفرنج، باستثناء صيدا وبيروت وجبيل.

وبعد عقد الصلح توجه صلاح الدين الأيوبي إلى القدس، وزار نابلس وطبرية وصفد وتبنين، ثم قصد مدينة بيروت التي أقام بها عدة أيام[2]، حيث استقبله واليها الأمير أسامة في شوال 588هـ/ 1192م[3].

(د) عودة الفرنج إلى بيروت وصيدا بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي (593ـ594هـ/ 1197ـ1198م)

بوفاة صلاح الدين الأيوبي سنة 589هـ/ 1193م، بدأ الصراع على الحكم بين

1 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 21.
2 ـ المصدر نفسه، ص 21.
3 ـ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج 2، ص 207.

ولديه الأفضل والعزيز عثمان. واستغل الفرنج هذا الصراع لاسترجاع الأماكن التي انتزعها منهم صلاح الدين، في حين انتهز العادل الأيوبي الفرصة ليبعد أولاد أخيه، ويصبح هو سلطاناً على مصر وامارة دمشق، وهذا ما سهل عودة الفرنج إلى بيروت وصيدا.

بعد انقضاء مدة هدنة «صلح» سنة 588هـ/ 1192م، تجمَّع الفرنج في عكا سنة 593هـ/ 1197م، وهدفهم الزحف شمالاً نحو بيروت. وعندما علم العادل الأيوبي بتحركهم، عزم على تخريب المواقع الساحلية اللبنانية التي لا يستطيع الدفاع عنها، على أن لا يتم تخريبها إلا بعد إجلاء الأهالي المسلمين عنها إلى مناطق داخلية مأمونة[1]. فسيَّر لهذه الغاية فرقة من عسكره إلى مدينة بيروت، فهدمت سور المدينة في 7 ذي الحجة 593هـ/ تشرين الأول 1197م، وشرعت في تخريب دورها وتدمير قلعتها ومرافقها. لكن الأمير أسامة بن منقذ متولي بيروت من قبل الملك العادل، عارض هذا الأمر ومنعهم من إنجاز مهمتهم، بحجة قدرته على الدفاع عن بيروت وتعهده بحفظها. وكانت الكارثة على بيروت من جراء ذلك، حيث زحف الفرنج نحو بيروت، بقيادة ملك قبرص آموري لوزينيان، ولما اقتربوا منها سلَّمها الأمير أسامة دون قتال، وخرج منها هو وجماعته[2] إلى مدينة صيدا، وكان ذلك نهار الجمعة 10 ذي الحجة 593هـ/ أيلول 1197م، ثم سار إلى مصر.

كان الاتفاق بين المسلمين والفرنج في شعبان 594هـ/ أول تموز 1198م، وبموجبه يحتفظ الفرنج ببيروت وجبيل وظلَّت يافا للمسلمين، وتقاسم الفريقان صيدا[3]. أي أن المسلمين والفرنج أقروا الأوضاع الراهنة.

ثم عقد الملك العادل الأيوبي اتفاقية يافا سنة 600هـ/ 1204م مع آموري لوزينيان،

---

1 ـ عصام شبارو: تاريخ بيروت، ص 77.

2 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 21.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 12، ص 127.

3 ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 12، ص 477، 478.

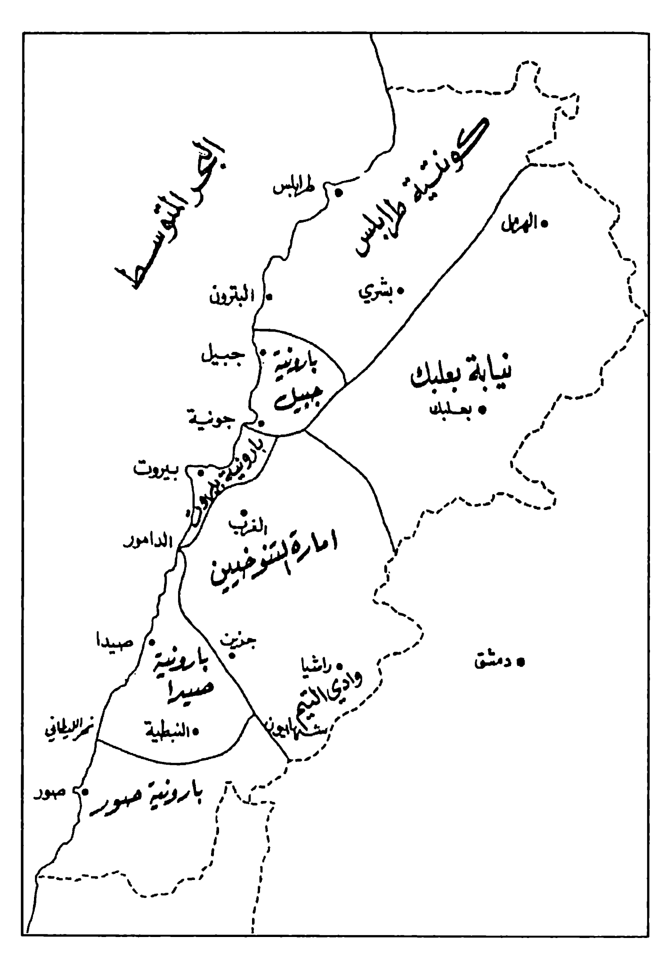
وتنازل بموجبها عن بقية المدن الساحلية مثل يافا وصيدا والناصرة واللد والرملة[1].

بقيت بيروت تحت حكم الفرنج، طيلة أربع وتسعين سنة (593ـ690هـ/ 1197 ـ1291م)، بينما استمر أمراء الغرب يحكمون القرى الجبلية حول بيروت، ويقاتلون الفرنج. فأقر الملك الصالح ايوب، أمير الغرب نجم الدين محمد[1] مكان والده حجي. وأقر الملك الناصر يوسف، آخر ملوك الدولة الأيوبية في دمشق، الأمير جمال الدين حجي الكبير[2] على إمارة الغرب سنة 650هـ/ 1252م.

استمرت الدولة الأيوبية سبعاً وخمسين سنة بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي، وتميزت هذه الفترة (589 ـ 648هـ/ 1193 ـ 1250م) بالحروب والمؤامرات بين أفراد البيت الأيوبي الواحد، فتمكن الفرنج، عن طريق المفاوضات، من احراز مكاسب لم يتمكن أقوى ملوك غرب أوروبا، وفي مقدمتهم ريتشارد الأول «قلب الأسد» ملك انكلترة، من تحقيقها إبان الحملة الصليبية الثالثة. ويكفي أن الكامل الأيوبي تنازل عن بيت المقدس صلحاً، دون قتال، لامبراطور الدولة الرومانية المقدسة فردريك الثاني بموجب اتفاقية يافا في ربيع الأول 626هـ/ شباط 1229م،[3] ثم عاد بيت المقدس إلى المسلمين سنة 638هـ/ 1240م. علماً أن الحملة الصليبية السادسة التي قادها فردريك الثاني، تعتبر أصغر حملة في تاريخ الحروب الصليبية، وهذا هو المستغرب في موقف الكامل الأيوبي الذي تعرض لتأنيب العلماء والفقهاء وسخط المسلمين[4].

---

1 ـ عصام شبارو: تاريخ بيروت، ص 79.
2 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 49، 50.
3 ـ جمال الدين حجي الكبير: هو جمال الدين حجي بن نجم الدين محمد بن حجي بن كرامة بن بحتر، ويعرف بجمال الدين الكبير، اعترف بامارته آخر سلاطين الدولة الأيوبية الناصر يوسف سنة 650هـ/ 1252م، كما اعترف به بعد ذلك سلطان المماليك الظاهر بيبرس سنة 659هـ/ 1261م. وكان له ولد اسمه نجم الدين محمد وكان مشهوراً بسوء السيرة مما أدى إلى حرمانه من وراثته من بعده.
صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 51 ـ 55.
اسطفان الدويهي: تاريخ الأزمنة، ص 233 ، 234.
4 ـ عصام شبارو: تاريخ المشرق العربي الاسلامي، ص 174.
5 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1، ص 230.



لبنان بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي

الفصل السادس

لبنان في عهد المماليك

(690 ـ 922هـ/ 1291 ـ 1516م)

عندما ظهرت الدولة المماليك في مصر سنة 648هـ/ 1250م، كان عليها مواجهة قوتين كبيرتين: المغول والصليبيين. فقد استطاع المغول بقيادة هولاكو دخول بغداد سنة 656هـ/ 1258م[1]، ثم حلب ودمشق سنة 658هـ/ 1260م[2]، وسقطت الإمارات الأيوبية في الشام. وحاولوا الاستيلاء على مصر، فتصدَّى لهم المماليك، وأنزلوا بهم الهزيمة في وقعة عين جالوت سنة 658هـ/ 1260م[3]. ثم لحقوا بهم وحرَّروا إمارات الأيوبيين في الشام، فوحَّدوا بذلك مصر والشام، مثلما توَّحدتا زمن صلاح الدين الأيوبي. وحطّمت انتصارات المماليك، معنويات الفرنج الذين جلوا نهائياً عن الساحل الشرقي للبحر المتوسط، بما فيه الساحل اللبناني، سنة 690هـ/ 1291م، بعد زوال إماراتهم في أنطاكية وطرابلس وعكا وحيفا وصيدا وصور وبيروت وضياع مملكة بيت المقدس. ولم يتركوا وراءهم سوى خرائب قلاعهم، لتكون شاهداً على ضياع أحلامهم بإقامة ملك غربي افرنجي في الشرق العربي الإسلامي[4].

---

1 ـ السيد الباز العريني: المغول، ص 212 ـ 222.
2 ـ المرجع نفسه، ص 243 ـ 249.
3 ـ المرجع نفسه، ص 257 ـ 261.
4 ـ عصام شبارو: تاريخ بيروت، ص 85.

وكان ذلك كله تمهيداً لدخول لبنان تحت حكم دولة المماليك سنة 690هـ/ 1291م، الذي استمر مدة قرنين وربع القرن، حتى سقوط دولة المماليك في بلاد الشام، على يد الدولة العثمانية سنة 922هـ/ 1516م.

1 ـ السلطان الظاهر بيبرس والحرب الشاملة ضد الفرنج (658 ـ 676هـ/ 1260 ـ 1277م)

يعتبر الظاهر بيبرس المؤسس الحقيقي لدولة المماليك، وقد تولى السلطنة، يوم الثلاثاء 19 ذي القعدة 658هـ/ 26 تشرين الأول 1260م[1]. ثم أقام الخلافة العباسية في القاهرة سنة 659هـ/ 1261م[2] وإن كانت بشكل صوري بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد على يد المغول سنة 656هـ، 1258م، وهدفه الحصول على دعم المسلمين له، فتمكن من توحيد مصر والشام، بعد التخلص من المناوئين له. وقضى السنوات الخمس الأولى من حكمه، في تدعيم القوة الحربية، فبلغ عدد أفراد الجيش المملوكي حوالى الأربعين ألفاً[3]، إلى جانب أسطول بحري يتألف من خمسين سفينة[4].

بدأ الظاهر بيبرس حربه الشاملة ضد الفرنج، في ساحل بلاد الشام، بما فيه الساحل اللبناني، فدخل قيسارية وأرنون سنة 663هـ/ 1265م، ثم قلاع صفد وحلبا والقليعات وعرقا[5] سنة 664هـ/ 1266م، ويافا وامارة أنطاكية[6] سنة 666هـ/ 1268م.

---

1 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1 ص 437.
2 ـ عصام شبارو: تاريخ المشرق العربي الإسلامي، ص 221.
3 ـ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج 7 ص 197.
4 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1 ص 447.
5 ـ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج 4 ص 3.
6 ـ ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 307.
ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج 7 ص 143.

(أ) عقد الهدنة مع ايزابيلا ملكة بيروت
(6 رمضان 667هـ/ 9 أيار 1269م)

كان هدف السلطان الظاهر بيبرس، تحرير المدن الساحلية، لذلك شرع في اتباع خطة معرفة أخبار الفرنج وكشف أحوالهم، خاصة في بيروت وصيدا، قبل محاربتهم والقضاء عليهم. وقد عاونه في ذلك أمراء الغرب، مثل الأمير زين الدين صالح بن علي[1] والأمير جمال الدين حجي، فضلاً عن أحد أعوانه بدر الدين بن رحال[2]. وقد خشي أمراء الفرنج من هذا الأمر، وخاصة بعد سقوط قلعة صفد ثم امارة أنطاكية، فسارع بعضهم إلى عقد الهدنة مع الظاهر بيبرس، يتنازل بموجبها عن نصف أو جزء من مداخيل البلاد[3]. وكانت أشهرها الهدنة التي عقدها الظاهر بيبرس مع ايزابيلا صاحبة بيروت، يوم الخميس 6 رمضان 667هـ/ 9 أيار 1269م. وايزابيلا هي ابنة جان الثاني دي ايبلان الذي خلفته في حكم بيروت سنة 662هـ/ 1264م، وتطلق عليها المصادر العربية اسم «الدبونة»، وهو تعريب لاسم البيت الفرنجي الحاكم في بيروت «دي ايبلان».

ويتبين من نص الهدنة، أن حدود بيروت ونواحيها، كانت تمتد من جبيل شمالاً إلى صيدا جنوباً، كما تظهر بعض أسماء مدن وأحياء لا تزال باقية إلى يومنا هذا في لبنان، مثل: جونية، العصفورية، سن الفيل، انطلياس، الجديدة، البوشرية، الدكوانة، خلدة، والناعمة.

---

1 ـ الأمير زين الدين صالح بن علي بن بحتر بن علي أمير الغرب (ت 676هـ/ 1277م): كان من أشجع أهل زمانه وأشدهم بأساً، انتصر على ابن ودود وابن حاتم وعسكر بعلبك والبقاع في قرية عيتات سنة 653هـ/ 1255م. ورغم المساعدات التي كان يقدمها للظاهر بيبرس، فقد سجنه في مصر ثم أفرج عنه بعد وفاته سنة 676هـ/ 1277م.
صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 58 ـ 70.

2 ـ المصدر نفسه، ص 61.

3 ـ القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج 14، ص 42 ـ 51.

وهذا هو نص الهدنة[1]:

«استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، وبين الملكة الجليلة المصونة الفاخرة، فلانة بنت فلان، مالكة بيروت وجميع جبالها وبلادها التحتية مدة عشر سنين متوالية، أولها يوم الخميس سادس رمضان سنة سبع وستين وستمائة، على بيروت وأعمالها المضافة إليها، الجاري عادتهم في التصرف فيها في أيام الملك العادل أبي بكر بن ايوب، وأيام ولده الملك المعظم عيسى، وأيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز. والقاعدة المستقرة في زمنهم إلى آخر الأيام الظاهرية بمقتضى الهدنة الظاهرية. وذلك مدينة بيروت وأماكنها المضافة إليها؛ من حد بلاد جبيل شمالاً، إلى حد صيدا جنوباً وهي المواضع الآتي ذكرها: جونية بحدودها، والعذب بحدودها، والعصفورية بحدودها، والرواوق بحدودها، وسن الفيل بحدودها، والرح والشويف بحدودها، وانطلياس بحدودها، والجديدة بحدودها، وحسوس بحدودها، والبُشرية بحدودها، وخلدا بحدودها، والناعمة بحدودها، ورأس الفقيه، والوطاء المعروف بمدينة بيروت، وجميع ما في هذه الأماكن من الرعايا والتجار، ومن سائر أصناف الناس أجمعين، والصادرين منها، والواردين إليها من جميع أجناس الناس، والمترددين إلى بلاد السلطان بيبرس ، وهي:

الحميرة وأعمالها وقلاعها وبلادها وكل ما هو مختص بها؛ والمملكة الأنطاكية وقلاعها وبلادها؛ وجبلة واللاذقية وقلاعها وبلادها؛ وحمص المحروسة وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها؛ ومملكة حصن عكا وما هو منسوب إليه؛ والمملكة الحموية وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها؛ والمملكة الرحبية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها؛ والمملكة البعلبكية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها؛ والمملكة الدمشقية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها ورعاياها؛ والمملكة الشقيفية وما يختص بها من

1 ـ القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج 14، ص 39 ـ 42.
عصام شبارو: تاريخ بيروت، ص 88 ـ 90.
تاريخ المشرق العربي الاسلامي، ص 414 ـ 416.

قلاعها وبلادها ورعاياها؛ والمملكة القدسية وما يختص بها؛ والمملكة الحلبية وما يختص بها؛ والمملكة الكركية والشوبكية وما يختص بها من القلاع والبلاد والرعايا؛ والمملكة النابلسية؛ والمملكة الصرخدية؛ ومملكة الديار المصرية جميعها بثغورها وحصونها وممالكها وبلادها وسواحلها وبرها وبحرها ورعاياها وما يختص بها؛ والساكنين في جميع هذه الممالك المذكورة، وما لم يذكر من ممالك السلطان وبلاده، وما سيفتحه الله تعالى على يده ويد نوابه وغلمانه، يكون داخلاً في هذه الهدنة المباركة، ومنتظماً في جملة شروطها، ويكون جميع المترددين من هذه البلاد وإليها آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وبضائعهم من الملكة فلانة وغلمانها، وجميع من هو في حكمها وطاعتها، بحراً وبراً، ليلاً ونهاراً، ومن مراكبها وشوانيها. وكذلك رعية الملكة فلانة وغلمانها يكونون آمين على أنفسهم وأموالهم وبضائعهم من السلطان ومن جميع نوابه وغلمانه ومن هو تحت حكمه وطاعته، براً وبحراً، ليلاً ونهاراً، في جبلة واللاذقية، وجميع بلاد السلطان ومن مراكبه وشوانيه.

وعلى أن لا يجدد على أحد من التجار المترددين رسم لم تجر به عادة، بل يجرون على العوائد المستمرة، والقواعد المستقرة من الجهتين. وإن عدم لأحد من الجانبين مال أو أخذت أخيذة، وصحت في الجهة الأخرى، ردت إن كانت موجودة، أو قيمتها إن كانت مفقودة. وإن خفي أمرها كانت المدة للكشف أربعين يوماً، فإن وجدت ردت، وإن لم توجد حلّف والي تلك الولاية المدعى عليه، وحلّف ثلاثة نفر ممن يختارهم المدعي، وبرئت جهته من تلك الدعوى. فإن أبى المدعى عليه عن اليمين، حلّف الوالي المدعي وأخذ ما يدعيه. وإن قتل أحد من الجانبين خطأ كان أو عمداً، كان على القاتل في جهته العوض عنه نظيره؛ فارس بفارس، وراجل براجل، وفلاح بفلاح. وإن هرب أحد من الجانبين إلى الجانب الآخر بمال لغيره، رد من الجهتين هو والمال، ولا يعتذر بعذر.

وعلى أنه إن صدر فرنجي من بيروت إلى بلاد السلطان، يكون داخلاً في الهدنة، وإن عاد إلى غيرها لا يكون داخلاً في هذه الهدنة.

وعلى أن الملكة فلانة لا تمكن أحداً من الفرنج على اختلافهم من قصد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها، وتمنع من ذلك وتدفع كل متطرق بسوء، وتكون البلاد من الجهتين محفوظة من المجرمين المفسدين.

وبذلك انعقدت الهدنة للسلطان، وتقرر العمل بهذه الهدنة والالتزام بعهودها

والوفاء بها إلى آخر مدتها من الجهتين، لا ينقضها مرور زمان، ولا يغير شروطها حين ولا أوان، ولا تنقض بموت أحد الجانبين.

وعند انقضاء الهدنة يكون التجار آمنين من الجهتين مدة أربعين يوماً، ولا يمنع أحد منهم من العودة إلى مستقره، وبذلك شمل هذه الهدنة المباركة الخط الشريف حجة فيها، والله الموفق في تاريخ كذا».

وبعد ثلاث سنوات من عقد الهدنة تزوجت ملكة بيروت إيزابيلا من هامو الغريب سنة 670هـ/ 1271م، وقد أوصى قبل وفاته بوضع زوجته ومملكة بيروت تحت حماية السلطان الظاهر بيبرس، وذلك خشية مطامع هيو الثالث، ملك قبرص. وصارت ملكة بيروت كلما سافرت إلى قبرص، تذهب إلى لقاء السلطان بيبرس، وتترك مملكتها وديعة بين يديه إلى حين عودتها[1]. وما لبثت أن اتخذت لنفسها حرساً من المماليك[2]. وهذا الأمر يؤكد سلطة المماليك التي أخذت تقوى شيئاً فشيئاً، على الفرنج المحتلين للسواحل اللبنانية، وخاصة في بيروت التي استمرت الملكة إيزابيلا تحكمها حتى وفاتها سنة 680هـ/ 1281م[3].

(ب) عقد الهدنة مع بوهمند السادس أمير طرابلس (669هـ/ 1271م)

حقق السلطان الظاهر بيبرس انتصارات جديدة على الفرنج، فاستولى بالأمان على حصن الأكراد، ثم على حصن عكار يوم الأربعاء 17 رمضان 669هـ/ 29 نيسان 1271م[4]. ثم توجه إلى طرابلس لحصارها، في يوم السبت 4 شوال 669هـ/ 16 أيار

---

1 ـ عصام شبارو: تاريخ بيروت، ص 90.
2 ـ العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص 298 ، 299.
3 ـ عصام شبارو: تاريخ المشرق العربي الإسلامي، ص 226.
4 ـ ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص 527 ـ 533.
ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 375 ـ 380.

1271م، فطلب أميرها بوهمند السادس الصلح، فعقد معه الهدنة[1]، كما عقد هدنة مع عكا سنة 670هـ/ 1272م[2].

وبعد وفاة بوهمند السادس سنة 673هـ/ 1275م، قام ابنه بوهمند السابع، بتجديد الهدنة مع بيبرس، يوم الخميس 8 محرم 674هـ/ 4 تموز 1275م.

وبعقد الهدنة مع معظم إمارات الفرنج، توقف القتال بين المماليك والفرنج، حوالى أربع عشرة سنة، منها ثماني سنوات بعد وفاة الظاهر بيبرس، حتى عاد القتال ليتجدد في عهد المنصور قلاون سنة 684هـ/ 1285م[3].

2 ـ السلطان المنصور قلاون والانتصار على الفرنج (678 ـ 689هـ/ 1279 ـ 1290م)

نفّذ المنصور قلاون السياسة الخارجية التي طبقها الظاهر بيبرس، والتي تقضي بفرط تحالف الفرنج ـ المغول، وعقد المعاهدات والتحالفات مع أمراء الفرنج، حتى يتمكن من القضاء على المغول والفرنج كل على حدة. وبذلك عقد الهدنة مع بوهمند السابع صاحب طرابلس سنة 680هـ/ 1281م، ومع مرغريت أميرة صور سنة 684هـ/ 1285م، قبل أن يحرر طرابلس نهائياً سنة 688هـ/ 1289م.

(أ) عقد الهدنة مع بوهمند السابع أمير طرابلس (27 ربيع الأول 680هـ/ 15 تموز 1281م)

عقد السلطان المنصور قلاون مع بوهمند السابع أمير طرابلس، في 27 ربيع

---

1 ـ ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص 534، 537.
الذهبي: العبر في خبر من عبر، ج 5، ص 290.
2 ـ ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص 33.
ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج 7 ص 157:
3 ـ عصام شبارو: تاريخ المشرق العربي الاسلامي، ص 228.

الأول 680هـ/ 15 تموز 1281م، هدنة لمدة عشر سنوات، جاء فيها[1]:

«تقررت الهدنة مع متملك طرابلس الشام «بيمند بن بيمند» ـ ملك الفرنج ـ لمدة عشر سنين كوامل متواليات، أولها السابع والعشرين في شهر ربيع الأول من هذه السنة، الموافق الخامس من شهر تموز سنة ألف وخمسماية وإثنين وتسعين للإسكندر اليوناني؛ وذلك على بلاد الملك المنصور، والملك الصالح ولده، قريبها وبعيدها، وسهلها وجبلها، غورها ونجدها، قديمها ومستجدها، وما هو مجاور لطرابلس، ومجاور لها من المملكة البعلبكية وجبالها، وقراها السهلية والجبلية، وجبال الضنين والقصبين، وما هو من حقوق ذلك، وعلى الفتوحات المستجدة، وهي الأكراد، وأفليس، والقليعات، وصافيتا، وميعار، وأطليعا، وحصن عكار، ومرقية ومدينتها، وبلادها، ومناصفاتها، وهي بلاد الملكية.

وجميع بلاد هذه الجهات التي ذكرناها ومناصفات المرقب التي دخلت في الصلح مع بيت الإسبتار، وبلده ومدينته، وما هو محسوب منها ومعروف بها من حصون وقرى، وبلاد الست، وبلاطنس وبلادها، وجبلة، ولاذقية، وأنطاكية، والسويدية، وبلاد ذلك، وحصن بغراس، وحصن ديركوش، وصهيون، وبرزيه، وحصون الدعوة، وغير ذلك من سائر الممالك الإسلامية، وما سيفتحه الله تعالى على يد الملك المنصور، ويد ولده، وعلى الموانىء والسواحل والأبراج، وغير ذلك، وعلى بلاد الأبرنس، وعلى طرابلس، وما هو داخل فيها، وأنفه، والبترون، وجبيل، وبلاد ذلك، وعرقا وبلادها المعينة في الهدنة، وعدّتها أحد وخمسون ناحية، وما هو للخيالة والكنائس، وعدّتها أحد وعشرون بلداً، وما هو للفارس «روجار دلالولاي» من قبلي طرابلس يكون مناصفة، وعلى أن يستقر برج اللاذقية وميناؤها في استخراج الحقوق والجبايات والغلات وغيرها مناصفة، وتستقر مقامهم باللاذقية على حكم شروط الهدنة الظاهرية الركنية، وعلى أن يكون على جسر أرتوسية من غلمان السلطنة لحفظ الحقوق ستة عشر نفراً، وهم المشدّ والشاهد والكاتب، وثلاثة غلمان لهم، وعشرة رجالة في خدمة المشد، ويكون لهم في الجسر بيوت

---

1 ـ ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص 210، 211.
عصام شبارو: تاريخ المشرق العربي الاسلامي، ص 424، 425.

يسكنونها، ولا يحصل منهم أذية لرعية الإبرنس، وإنما يمنعوا ما يجب منعه من الممنوعات، ولا يمنعوا ما يكون من عرقا وبلادها من الغلات الصيفية والشتوية وغيرها، لا يعارضهم المشد فيه، وما عدا ذلك مما يعبر من بلاد السلطان يؤخذ عليه الحقوق.

ولا يدخل إلى طرابلس غلة محمية للإبرنس ولا غيره إلاَّ ويؤخذ الموجب عليها، وعلى أن الإبرنس لا يستجدّ خارج مما وقعت الهدنة عليه بناء يدفع ولا يمنع، وكذلك السلطان لا يستجد بناء قلعة ينشئها من الأصل في البلاد التي وقعت الهدنة عليها، وعلى الشواني من الجهتين أن تكون آمنة كل طائفة من الأخرى، ولا ينقضي ذلك بموت أحدهما ولا بتغييره، وأن يحسن لأحد من أعداء السلطان، ولا يتفق عليه برمز ولا خط، ولا مراسلة، ولا مكاتبة، ولا مشافهة».

(ب) عقد الهدنة مع مرغريت أميرة صور
(14 جمادى الأولى 684هـ/ 18 تموز 1285م)

يوم الأربعاء 14 جمادى الأولى 684هـ/ 18 تموز 1285م، وقع السلطان المنصور قلاون، هدنة، مع أميرة صور مرغريت، ومدتها عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام. وتعهدت بموجبها بعدم بناء تحصينات جديدة في إمارتها، كما تعهدت بالوقوف على الحياد في الصراع بين السلطان والفرنج، مقابل عدم تعرض المماليك لإمارة صور.

وهذا هو نص الهدنة[1]:

«... استقرت الهدنة المباركة بين مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين... وبين الملكة الجليلة دام مراريت بنت سير هنري بن الأبرنس بيمند مالكة صور،... على أن يكون لمولانا السلطان الملك المنصور ولأولاده... الخمس الضياع

---

1 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، م 2، ص 172 ـ 177.
ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص 103 ـ 110.
أحمد حطيط: تاريخ لبنان الوسيط، ص 36 ـ 37.

من ضياع صور من أجودها وأكثرها متحصلاً من عين وغلة،... وهي قانا ومزرعتها، القروية، أصريفيا ومزرعتها، حانا يخن وما بكمالها، المجادل بكاملها، كفردبين بكاملها، على ما استقر عليه الحال إلى آخر الأيام الظاهرية.

... وتكون للملكة مراريت، مالكة صور، من ضياع صور عشر ضياع من قرايا مرج صور خاصاً لها على ما هو مستقر في الهدنة الظاهرية...، وهي عين أبي عبد الله، القاسمية، سدس، قحلب، المرفوف، الجارودية، الحمادية، مرفلة، رأس العين، برج الأسبتار،... وعلى أن تكون بقية بلاد صور جميعها، بما فيها من مزارع، وعدتها ثماني وسبعون ضيعة ومزرعة، وهي الطالية، درتيه، الدهرية، الفنونية، العثية، وادي الحجاج، العرتية، البحتية، المالكية، دير عمران، الكبية، بابولية، الحمية، دير قالون، غرايغال، الزيادات، حيوية، ربعين، بني دفنع، مارنين، عيا، صديقي، رسكيانية، رفيلة، عثليث ومزرعتها، الملاحات، السحنونية، الفراخية، طرقان، الدير، المعلية، الخميرا، روتية، بابوح فقعه، البازورية، كفردهال، جويا ومزرعتها، سرفيه، مجدل، بيت روح، طرسا، فسون، التفاحية، أمد ركنا، مارون، طرسخاث، كفرناي، بني، باقتلة، معولة، طفلسة، أشحور، الرمر، الفهرون، دور دغيا، أبروخيه، هرين، الصوافي، حلوسية، معروب، بعليث، دير قانون، طرديا، بدياس، النعمانية، بدوث، الحمرانية، طورا، السرفيات، بروسيل الجديدة، العباسة، الحنيثة، السفلسة، أشحور الفاه، شادسة، العجيلة، المصرية...، تكون هذه القرايا المذكورة في هذه الهدنة،... مناصفة بين مولانا السلطان الملك المنصور، وبين الملكة دام مراريت مالكة صور يقسم جميع المتحصل بها،... نصفين بين الجهتين بالسوية.

... وتستقر هذه الهدنة بشروطها المحررة، وقواعدها المقررة، ولا ينتقص أحكامها، ولا ينفك نظامها بموت أحد الجهتين ولا بعزل والٍ ولا تولية غيره،... بل تستمر مدتها، وتوفي عدتها، وهي عشر سنين كوامل متتاليات...».

(ج) تحرير طرابلس وأنفه والبترون
(688هـ/ 1289م)

توفي بوهمند السابع دون وريث، يوم الأحد 10 رمضان 686هـ/ 19 تشرين

الأول 1287م، فقام الصراع حول الحكم بين أمه سيبل وأخته لوسي، ما أدى إلى اضطراب الوضع داخل مدينة طرابلس[1].

انتهز السلطان المنصور قلاون، هذه الفرصة، وتوجه إلى طرابلس على رأس جيش كبير، يضم أربعين ألف فارس ومئة ألف من المشاة، في مستهل ربيع الأول 688هـ/ 25 آذار 1289م[2]، وحاصر المدينة أربعة وثلاثين يوماً، ليحررها في 4 ربيع الثاني 688هـ/ 27 نيسان 1289م، فهرب الفرنج إلى الجزيرة المواجهة لطرابلس، فاقتحمها جيش قلاون وقضى على الفرنج قتلاً وأسراً[3]. وقيل أن القتلى بلغوا سبعة آلاف إلى جانب ألفين ومائتي أسير[4]. ثم فتح أنفه والبترون، دون أي مقاومة.

عمد المنصور قلاون إلى هدم مدينة طرابلس، بعد أن استمرت حوالى 185 سنة بيد الفرنج، ثم أمر ببناء مدينة جديدة، على أن تكون بعيدة عن الشاطىء، وفي منأى عن تهديد الأساطيل الصليبية[5].

أخذ المنصور قلاون، يستعد لتحرير عكا، لكنه توفى يوم الجمعة 6 ذي القعدة 689هـ/ 10 تشرين الثاني 1290م، فخلفه ابنه الأشرف خليل الذي تحقق معه جلاء الفرنج نهائياً، في مطلع عهده، وتحديداً سنة 690هـ/ 1291م.

3 ـ السلطان الأشرف خليل بن قلاون وإقصاء الفرنج نهائياً (690هـ/ 1291م)

تابع الأشرف خليل بن قلاون، ما بدأه أبوه من الاستعداد لتحرير عكا. وبعد حصار استمر شهراً ونصف الشهر[6]، دخل عكا، يوم الجمعة 17 جمادي الأولى 690هـ/

---

1 ـ عصام شبارو: تاريخ المشرق العربي الاسلامي، ص 233.
2 ـ ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، ج 8 ص 268.
3 ـ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج 4 ص 23.
صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 70، 71.
4 ـ ابن الفرات: معرفة تراجم الخلفاء والملوك، ج 8 ص 80.
5 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1 ص 748.
6 ـ ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، ج 8 ص 308 ـ 310.
المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1 ص 763، 764.

18 أيار 1291م، ثم أمر بهدم المدينة[1].

تعتبر معركة عكا، آخر المعارك الفاصلة في الحروب الصليبية، وقد فتحت الطريق لتحرير جميع المدن الساحلية اللبنانية المتبقية بيد الفرنج، وذلك في مدة قصيرة جداً، لا تتجاوز سبعة وأربعين يوماً.

(أ) تحرير صور وصيدا وجبيل
(690هـ/ 1291م)

وقع الخوف والرعب في قلوب الفرنج، الذين أخلوا صور[2] وصيدا من غير قتال. وقاومت قلعة صيدا قليلاً، لكن الأمير سنجر الشجاعي ما لبث وأن دخلها. في حين سيّر الأشرف خليل الأميرين علم الدين الداودي وشرف الدين الجاكي إلى جبيل[3].

(ب) تحرير بيروت
(22 رجب 690هـ/ 21 تموز 1291م)

عين السلطان الأشرف خليل بن قلاون، الأمير سنجر الشجاعي نائباً عنه في بلاد الشام، وطلب منه دخول بيروت، لأن صاحب بيروت أرسل إلى السلطان أثناء حصار عكا يطلب منه الأمان فأعطاه أماناً.

دخل الأمير سنجر الشجاعي بيروت[4] دون مقاومة في 22 رجب سنة 690هـ/ 21 تموز 1291م. وجمع سكان بيروت من الفرنج والنصارى، وأغلب النصارى من طائفة الموارنة، وأرسلهم إلى دمشق، ومنها إلى مصر، وهلك منهم في الطريق الشيوخ والنساء. ولما وصلوا مصر، أطلقهم السلطان وخيَّرهم بين العودة إلى بيروت أو التوجه إلى جزيرة قبرص، فتوجهوا جميعاً إلى قبرص[5]. وهكذا انتقل بعض نصارى بيروت

---

1 ـ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج 4 ص 24، 25.
2 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1، ص 765، 766.
3 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 24.
4 ـ المصدر نفسه، ص 71.
5 ـ المصدر نفسه، ص 24.

والجبال المحيطة بها، وأغلبهم من الموارنة، إلى قبرص، فلا نستغرب إن وجدنا في يومنا هذا أحفاد هؤلاء الموارنة في جزيرة قبرص، حيث لهم فيها أسقفٌ ومقعدٌ نيابيّ خاصّ بهم[1].

(ج) هدم المدن اللبنانية الساحلية بعد تحريرها

بعد تحرير بيروت، أخلى الفرنج حيفا وعتليت والصرفند. وقد أمر السلطان الأشرف خليل بن قلاون، بهدم جميع هذه المدن المحررة، بما فيها من التحصينات الساحلية، حتى لا يعاود الفرنج الاستيلاء عليها، والتحصن فيها من جديد، بعد فرارهم إلى جزيرتي قبرص[2] ورودس.

ومن سخرية التاريخ المملوكي، أن ينتهي السلطان الأشرف خليل بن قلاون قتلاً على يد أمرائه سنة 692هـ/ 1293م[3]، أي بعد أقل من سنتين على انجازه المهمة التي بدأها الناصر صلاح الدين الأيوبي بتحريره القدس قبل قرن وست سنوات وتحديداً سنة 583هـ/ 1187م، والتي تابعها المماليك في عهد السلطان الظاهر بيبرس ثم السلطان المنصور قلاون، والقاضية بإخلاء الفرنج نهائياً عن ساحل بلاد الشام، بما فيه الساحل اللبناني.

4 ـ حملات المماليك ضد الشيعة والنصيرية في كسروان (691 ـ 705هـ/ 1292 ـ 1305م)

على الرغم من الهزيمة الساحقة التي حلت بالمغول على يد المماليك في معركة عين جالوت، بين بيسان ونابلس، سنة 658هـ/ 1260م، وهي أول هزيمة للمغول في تاريخهم، انتهى معها أسطورة «الجيش المغولي قوة لا تقهر»[4]، فقد حاول المغول طيلة

---

1 ـ محمد طه الولي: تاريخ المساجد، ص 80.
2 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 24.
3 ـ عصام شبارو: تاريخ المشرق العربي الاسلامي، ص 237.
4 ـ أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص 208.
أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج 2 ص 214.

حكمهم في فارس، شن الغارات على بلاد الشام المرة تلو المرة طمعاً في احتلالها. فاضطر السلطان الظاهر بيبرس للتوجه نحو حدود فارس سنة 671هـ/ 1272م، لينزل الهزيمة بالمغول[1]. وكذلك انتصر السلطان المنصور قلاوون على المغول عند حمص سنة 680هـ/ 1281م. ولم تعد سياسة التحالف مجدية بين المغول والفرنج ضد المماليك، بعد التحرير النهائي لساحل بلاد الشام، بما فيه الساحل اللبناني، من الفرنج، على يد السلطان الأشرف خليل بن قلاون سنة 690هـ/ 1291م[2]. وما لبث هذا السلطان أن أرسل حملة على كسروان لتأديب الشيعة والنصيرية الذين تعاونوا مع الفرنج والمغول ضد المماليك، سنة691هـ/ 1292م، كما أرسل السلطان الناصر محمد بن قلاون حملة ثانية سنة 699هـ/ 1300م وحملة ثالثة سنة 705هـ/ 1305م، حتى تمت سيطرة المماليك على كسروان.

(أ) حملة الأمير بدر الدين بيدرا
(691هـ/ 1292م)

تزايد عدد الشيعة والنصيرية في كسروان، وهي منطقة جبلية وعرة داخل جبل لبنان، لجأ إليها هؤلاء من سائر المناطق اللبنانية، هرباً من سياسة التضييق عليهم، بسبب الخلاف المذهبي بينهم وبين الحكم المملوكي «السنيّ»، ورفضهم الخضوع للمماليك الذين اعتبروا الشيعة والنصيرية قد تعاونوا مع المغول والفرنج، قبل أن يتمكن المماليك من تحقيق النصر النهائي على الفرنج سنة 690هـ/ 1291م.

لذلك، أسرع السلطان الأشرف خليل بن قلاون، بعد تحرير الساحل اللبناني من الفرنج، وأرسل حملة على كسروان سنة 691هـ/ 1292م، بقيادة نائب السلطنة الأمير بدر الدين بيدرا ومعه العديد من كبار الأمراء مثل بندار وسنقر الأشقر وقرا سنقر المنصوري وبدر الدين بكتوت الأتابكي وركن الدين بيبرس طقصوا وعز الدين أيبك الحموي[3].

---

1 ـ عصام شبارو: تاريخ المشرق العربي الاسلامي، ص 285.
2 ـ المرجع نفسه، ص 287.
3 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 27.

توجهت الحملة من الساحل إلى جبال كسروان، فقامت بأوسع عملية اعتقال، ثم انسحبت دون أن تتمكن من السيطرة على كسروان[1]. فقد نجح الشيعة والنصيرية في مقاومة حملة المماليك، ونالوا من بعض أفرادها في مضائق الجبال. وعلى الرغم مما أقدمت عليه الحملة من القتل والنهب في أهل كسروان، فإنها عادت شبه مهزومة[2]، مما حدا بالمماليك إرسال حملتين إلى كسروان، عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون.

(ب) حملة الأمير جمال الدين أقوش الأفرم (699هـ/ 1300م)

أصاب الغرور زعماء الشيعة والنصيرية في كسروان، بعد فشل حملة الأمير بدر الدين بيدرا ضدهم سنة 691هـ/ 1292م، واشتدت شوكتهم بعدما زاد عددهم، واستمروا في خروجهم عن طاعة المماليك، وهم يتحصنون في الجبال المنيعة. وتمادوا بتعرضهم لجيش المماليك وهو يتراجع بعد هزيمته على يد المغول بقيادة غازان في مجمع المروج بين حمص وحماه، سنة 699هـ/ 1300م، وتمكن المغول من دخول دمشق ونهبها[3]. فقد وثب أهل كسروان على المماليك أثناء تفرقهم في البلاد، أثر الهزيمة، وقتلوا كثيراً منهم، ونهبوهم وأخذوا أسلحتهم وخيولهم.

توجهت حملة المماليك بقيادة نائب السلطنة في دمشق الأمير جمال الدين أقوش الأفرم، يوم الجمعة 20 شوال 699هـ/ 1300م، وانضمت إليه عساكر نواب حماه وحمص وطرابلس، لتضم الحملة اثني عشر ألفاً من الرماة، فأحاطت بجبال كسروان، ودخلتها، بعد قتال استمر ستة أيام. وتعرض الشيعة والنصيرية للقتل والأسر، بعد الهزيمة التي حلت بهم، فطلبوا الأمان، وألقوا السلاح، وأعادوا ما نهبوه من أسلحة وخيل عساكر المماليك الذين هزموا على يد المغول. وقرر عليهم الأمير جمال الدين أقوش دفع مائة ألف درهم، وعاد إلى دمشق ومعه العديد من مشايخ الشيعة وأكابرهم، يوم

---

1 ـ طارق قاسم: تاريخ لبنان الوسيط، ص 259.
2 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1، ص 902، 903.
3 ـ عصام شبارو: تاريخ المشرق العربي الاسلامي، ص 288.

الأحد 3 ذي القعدة 699هـ/ 1300م[1].

وطد المماليك نفوذهم، بعد أن حلت الهزيمة الساحقة بالمغول في مرج الصفر قرب دمشق، سنة 703هـ/ 1303م، ودخل السلطان الناصر محمد بن قلاون إلى القاهرة يجر وراءه ألفاً وستمائة أسير من المغول، وهم مقيدي الأيدي ورؤوس قتلى المغول معلقة في رقابهم، فضلاً عن ألفَ رأس معلقة على ألف رمح[2]. فمهد ذلك لسيطرة المماليك نهائياً على كسروان سنة 705هـ/ 1305م.

(ج) سيطرة المماليك على كسروان (705هـ/ 1305م)

أقطع نائب السلطنة في دمشق، الأمير جمال الدين أقوش الأفرم، منطقة كسروان، للامارة التنوخية التي تجاورها جنوباً، لوقوفها إلى جانب المماليك، سواء في حروبهم ضد الفرنج والمغول، او في حملاتهم ضد كسروان. وفرض الأمير التنوخي ناهض الدين بحتر الضرائب على كسروان، ما أدى إلى تمرد الشيعة والنصيرية ضد التنوخيين والمماليك الذين جهزوا هذه المرة، حملة كبيرة تضم خمسين ألفاً[3]، بعد أن سار نائب السلطنة في دمشق الأمير جمال الدين أقوش الأفرم، لينضم إليه نائب طرابلس سيف الدين استدمر، ونائب صفد شمس الدين سنقر جاه المنصوري، وذلك في 2 محرم 705هـ/ 1305م.

استولى المماليك على كسروان سنة 705هـ/ 1305م، وسيطروا عليها عنوة بالسيف، بعد قتال استمر أحد عشر يوماً، وتم أسر ستمائة بعد تخريب الضياع وقطع الكروم وغنم الأموال الكثيرة.

ولا يمكن اغفال الدور الذي قام به الشيخ تقي الدين بن تيمية، الذي شارك في الحملتين الثانية والثالثة على كسروان، وأبان علماً وشجاعة. فقد كفَّر ابن تيمية بفتاويه

---

1 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 2، ص 12 ـ 16.
ابن كثير: البداية والنهاية، ج 14 ص 12، 35.
2 ـ عصام شبارو: تاريخ المشرق العربي الإسلامي، ص 288.
3 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 2 ص 160.

فرق الشيعة واعتبرهم فئات غير اسلامية[1] ما يعني هدر دماء شيعة كسروان، وهدم بيوتهم وحرق مزروعاتهم. فأظهر ابن تيمية الطائفة الشيعية بأنها مرتدة عن الاسلام، ما يبرر حملات المماليك على كسروان، والسيطرة عليها عنوة بالسيف، ليلقي أهلها العقاب الشديد الذي لا يتناقض مع مبادىء الإسلام، ولتتحول كسروان إلى أراض مكشوفة بعد قطع الأشجار حتى لا تتحول الغابات الكثيفة إلى مقر للمتمردين أو العصاة.

وفي جمادي الثانية 705هـ/ 1305م، أقطع السلطان الناصر محمد بن قلاون قرى كسروان إلى أمراء المماليك[2]، مثل علاء الدين بن معبد البعلبكي، وسيف الدين بلتمر عتيق بكتاش الفخري، وحسام الدين لاجين، وعز الدين خطاب العراقي. وفي سنة 706هـ/ 1306م، جاء المماليك بعشائر التركمان، للسكن على بعض أطراف كسروان وقرب نهر الكلب، لحماية مرفأ بيروت وتأمين الطريق الساحلي نحو مدينة طرابلس، عبر معبر نهر الكلب الذي لا يمكن عبوره إلا بأمر والي بيروت أو من الأمراء التنوخيين حكام منطقة الغرب.

تفرق أهل كسروان في العديد من المناطق اللبنانية، فتوجه النصيرية إلى طرابلس، ولجأ الشيعة إلى جزين والبقاع وبعلبك[3]، وبقي قسم كبير منهم في جبل عامل الذي كان بعيداً عن حملات المماليك.

وبذلك تم القضاء نهائياً على الوجود الشيعي والنصيري في كسروان التي تحولت في ما بعد إلى سكن جماعات صغيرة من الموارنة نزحت من الشمال، لتتحول كسروان شيئاً فشيئاً إلى منطقة مارونية.

5 ـ حملة المماليك ضد الموارنة في بشري وجبة بشري (769هـ/ 1367م)

لم يتمكن المماليك من تحرير الساحل اللبناني نهائياً من الفرنج، إلا بعد إجبار

---

1 ـ راجع: مجموعة فتاوي لشيخ الاسلام أحمد بن تيمية. الرياض 1961.

2 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 32، 33.

3 ـ المصدر نفسه، ص 34.

الموارنة على الخلود إلى السكينة في المرتفعات الشمالية، وتحديداً في قرى زغرتا وبشري وجبة بشري، وهي القرى التي اتهمها المماليك بمساعدة الفرنج. فكانت حملات المماليك على الموارنة، سواء عهد السلطان الظاهر بيبرس سنة 666هـ/ 1268م أو عهد السلطان المنصور قلاون سنة 682هـ/ 1283م ثم سنة 688هـ/ 1289م، كافية ليحقق السلطان الأشرف خليل بن قلاون إجلاء الفرنج نهائياً سنة 690هـ/ 1291م، فاضطر بعض الموارنة للتوجه إلى جزيرة قبرص.

كان الموارنة الذين هاجروا إلى قبرص خوفاً من المماليك يؤلبون الحكم هناك للانتقام. فحاول ملك قبرص بطرس الأول تجهيز حملة ضخمة دون جدوى، لأن الحروب الصليبية التي قامت تحت ستار الدين وراية الصليب بحجة تخليص قبر السيد المسيح عليه السلام، لم تعد تستهوي غرب أوروبا الذي اتجه نحو العلمانية والدنيوية ودراسة القانون[1]، منذ تحقيق المماليك النصر النهائي على الفرنج سنة 690هـ/ 1291م.

وعلى الرغم من ذلك، تمكن ملك قبرص، بالتعاون مع جنوى والبندقية، من اعداد حملة بحرية تضم مائة وخمس وستين سفينة[2]، ثم، هاجم مدينة الاسكندرية سنة 767هـ/ 1365م، وأمعن في السلب والنهب والقتل[3]، ما آثار حفيظة المماليك وخشيتهم من مهاجمته الساحل اللبناني.

لذلك جهز المماليك، زمن السلطان الأشرف شعبان، حملة سنة 769هـ/ 1367م، للاقتصاص من موارنة جبل لبنان، بحجة انحيازهم إلى جانب ملك قبرص. واجتاحت الحملة مقر البطريرك الماروني جبرائيل الحجولي الذي نفذ فيه حكم الاعدام، وهرب العديد من أساقفة الموارنة إلى جزيرة قبرص[4]. وبوفاة ملك قبرص بطرس الأول سنة 771هـ/ 1369م، زالت آخر شخصية من شخصيات الحروب الصليبية

---

1 ـ عصام شبارو: تاريخ المشرق العربي الاسلامي، ص 237.
2 ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 3، ص 105، 106.
3 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 72.
4 ـ اسطفان الدويهي: تاريخ الأزمنة، ص 312.
يوسف داغر: بطاركة الموارنة، ص 37، 38.

التي تحركت على أساس كبير من التعصب الديني.

اكتفى المماليك بالسيطرة على المدن اللبنانية الساحلية، دون جبل لبنان، للتفرغ لحماية الساحل من أي غزو مفاجىء من قبل قبرص. وهذا ما يفسر، انحسار الوجود النصراني في المدن اللبنانية الساحلية بعد أن وصل ذروته زمن الحروب الصليبية، فلاذ هؤلاء بالمرتفعات الشمالية سواء في زغرتا أو بشرى وجبة بشري، وفي طليعتهم الموارنة، ومعهم بعض الفرنج الذين لم تسنح لهم الظروف بالرحيل مع الجلاء الصليبي التام سنة 690هـ/ 1291م، فاعتنقوا المارونية، التي اعتنقها من قبل بعض الأسر العربية النصرانية المناهضة للحكم العربي الإسلامي. فلا غرو، أن تنتمي إلى الفرنج جذور آل فرنجية المـأخوذة من لفظة افرنج، وآل صليبي المشتقة من الصليبي، وآل صوايا من الأسرة الفرنجية «سافوا»، وآل الدويهي من الأسرة الفرنجية أيضاً «دو دوي».

وبذلك دخلت الأقلية المسيحية «الفرنجية» غير العربية إلى الطائفة المارونية، كما دخلتها من قبل الأسر العربية النصرانية، فتحولت هذه الطائفة، بعد تعريب غير العرب فيها، إلى أكثرية مارونية عربية، ناقمة على الحكم المملوكي غير العربي.

وتحول اهتمام المماليك إلى غزو جزيرة قبرص نفسها، بعد اجبار موارنة جبل لبنان على الإخلاد إلى السكنية، وعدم مواجهة المماليك.

6 ـ تيمورلنك يحتل بعلبك ويفرض الطاعة على بيروت وصيدا وطرابلس (803هـ/ 1401م)

ذاع صيت المماليك في قتال المغول والانتصار عليهم، حتى تراجع خطرهم منذ سنة 703هـ/ 1303م. لكن ظهور الزعامة التاريخية بين المغول من فترة لأخرى، كانت تمثل خطراً جديداً رمزه العنف والرعب. ففي عهد السلطان المملوكي الظاهر برقوق (784 ـ 801هـ/ 1382 ـ 1398م) ظهر الخطر المغولي مجدداً بقيادة تيمورلنك.

اجتاح تيمورلنك بلاد فارس، وحاصر بغداد قبل أن يدخلها ويقتل معظم سكانها ويخرب أسوارها وأسواقها سنة 795هـ/ 1393م. وتمكن السلطان الظاهر برقوق من تحرير بغداد سنة 796هـ/ 1394م، فعاد تيمورلنك ليجتاح بغداد مرة ثانية، سنة 802هـ/ 1399م، عهد السلطان الناصر فرج بن برقوق (801 ـ 808هـ/ 1389

ـ 1398 م)، ثم استباح حلب في ربيع الأول 803هـ/ تشرين الثاني 1400م[1].

احتل تيمورلنك بعلبك وخرب قلعتها، فهرب سكان البقاع، وبخاصة الشهابيين في وادي التيم.

وتوجهت فصائل مغولية نحو الساحل اللبناني، ولم تعمد إلى تخريب مدنه، بل اكتفت بالحصول على المال الوفير من بيروت وطرابلس وصيدا[2].

لم يتحرك السلطان الناصر فرج بن برقوق لمواجهة المغول، إلا حينما علم بمسير تيمورلنك نحو دمشق، فأرسل مرسومه إلى بيروت وصيدا والبقاع بإرسال العسكر إلى دمشق، وخرج بجيشه من مصر، ليصل دمشق في 6 جمادي الأولى 803هـ/ 23 كانون الأول 1400م، فأعاد الطمأنينة إلى أهل دمشق، على الرغم من انقسام الجيش المملوكي إلى قوات مختلفة اتجهت كل منها في ناحية دون خطة موحدة مدروسة لمواجهة المغول.

وزاد الأمر سوءاً، المؤامرة التي دبرها بعض أمراء المماليك في القاهرة ليسلطنوا الشيخ لاجين الجركسي، فاضطر السلطان الناصر فرج بن برقوق للعودة إلى القاهرة مع بعض الأمراء في 20 جمادي الأول 803هـ/ 6 كانون الثاني 1401م، فقضى على المؤامرة، لكنه لم يعد إلى دمشق التي دخلها تيمورلنك، ليرتكب فيها مختلف أنواع الأعمال الوحشية، بعدما استبيحت تسعة عشر يوماً، تعرضت معها لأبشع كارثة في تاريخها، لا تزال حتى يومنا هذا مضرباً للأمثال.

وعندما توجه أمراء الغرب ومتولي بيروت ناصر الدين محمد بن سويدان البيدمري، إلى دمشق، تنفيذاً لمرسوم السلطان المملوكي، فإنهم لم يصلوا إلا بعد أن نهب تيمورلنك دمشق[3] وأشعل النار بها ثلاثة أيام[4].

---

1 ـ ابن عربشاه: عجائب المقدور في أخبار تيمور، ج 2 ص 86، 91.
ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج 12، ص 223 ـ 226.
2 ـ عصام شبارو: تاريخ المشرق العربي الاسلامي، ص 301، 302.
3ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت ص 218، 219.
4 ـ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة، ج 12، ص 241 ـ 246.
ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج 1 ص 232، 235.

اكتفى تيمورلنك بغزو بلاد الشام، دون أن يتجه نحو مصر، فنجت دولة المماليك من السقوط السريع، بعدما اتجه المغول نحو الدولة العثمانية التي حلت بها الهزيمة سنة 805هـ/ 1402م[1]. وما لبث هذا الخطر المغولي أن زال نهائياً بوفاة تيمورلنك سنة 808هـ/ 1405م.

7 ـ السلطان الأشرف برسباي وتحويل بيروت قاعدة لغزو جزيرة قبرص وتحريرها (827 ـ 829هـ/ 1424 ـ 1426م)

كان صاحب قبرص يظهر مصالحته للمماليك، وهو في الحقيقة متواطىء مع قراصنة الفرنج، الذين يغيرون على السواحل اللبنانية. ولذلك أصبحت بيروت هي الميناء الذي تتوجه منه مراكب المماليك لغزو قبرص، ففي رمضان 827هـ/ 1424م، أقلعت من بيروت خمس أغربة[2] وثلاثة من دمياط في مصر، بكل واحد مائة وثمانين مجذافاً، وغراب صغير من بيروت، وآخر من طرابلس، بكل منهما دون المائة مجذاف، ومعهم ثلاثة أمراء من مصر وأمير من كل من بيروت وطرابلس. وتوجهت السفن إلى قبرص، ثم عادت بسبب قوة الرياح. ثم أعادت هذه السفن الكرّه في شوال 827هـ/ 1424م، واحتلت بالمسون (ليماسول) من ثغور قبرص، وأسرت 25 رجلاً وامرأة وطفلاً[3].

وفي سنة 828هـ/ 1425م، أشرف السلطان الأشرف برسباي على بناء أربع

---

1 ـ ابن عربشاه: عجائب المقدور في أخبار تيمور، ج 2 ص 3.

2 ـ الأغربة: مفردها غراب، سمي كذلك لأن رأسه يشبه رأس الغراب وكان له قلوع بيضاء، ويسير بعدد من المجاذيف تبلغ مائة وثمانين مجذافاً، كما كان مزوداً بجسر من الخشب يهبط على مركب العدو ويمر عليه الجنود للقتال بالأساليب البرية.
سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص 293.
العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص 132.

3 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 242.

حمالات[1]، كما بنى عدة أغربة كباراً وصغاراً. كذلك أمر ببناء حمالة ببيروت لعسكر الشام، وغرابين أحدهما بثمانين مجذافاً والثاني بأربعين، مع غراب عتيق كان ببيروت قبل ذلك. وتم بناء حمالة بطرابلس مع الغراب الذي كان فيها. واجتمع امراء الحملة في بيروت.

وكان الأمير صالح بن يحي[2] صاحب كتاب تاريخ بيروت، على رأس الغراب العتيق الذي بني في بيروت سابقاً، وقد ذكره بقوله: «وكان هذا الغراب من أحسن الأغربة مشياً، وكان معي قريب من مائة رجل بحرية ومقاتلة»[3].

اتجهت السفن نحو قبرص، ونزلت قرب الماغوصة[4] وفي مكان آخر يسمى رأس العجوز، وشن المماليك الغارات ونهبوا وسلبوا، ثم تعقبوا أسطول صاحب قبرص، ويتألف من اثنتي عشرة سفينة. ثم وقعت المعركة بين الفريقين بعد نزولهما البر والبحر، وحلت الهزيمة بالقبارصة، وكانوا بإمرة البرنس كنداسطبل، أخي ملك قبرص، وكان معه سبعماية فارس وثمانية آلاف من المشاة[5]، وقع منهم حوالى سبعماية أسير. وهكذا انتصر المماليك في قبرص، وعادت سفنهم إلى دمياط في مصر[6]. ثم أقيم احتفال شعبي

---

1 ـ الحمالات: تعرف بالمسطحات (مفردها مسطح)، وهي مراكب ضخمة تحمل الأسلحة للأسطول.
العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص 136.

2 ـ صالح بن يحي (ت 850هـ/ 1446م): صالح بن يحيى صالح بن الحسين التنوخي، من بني أمراء الغرب، مؤرخ كان له علم بالنجوم والاسطرلاب. له كتاب «تاريخ بيروت» كتبه بلغة أقرب إلى العامية. ويظهر أنه كان قائداً بحرياً، فقد ذكر في كتابه أنه كان مقدماً على سفينة ذهبت مع سفن أخرى مشحونة بالرجال لغزو قبرص سنة 828هـ/ 1425م، وذكر أنه قام برحلة أخرى من نوعها سنة 829هـ/ 1426م ووصفه المؤرخ ابن سباط بأنه «صاحب الغزوات» وله كتاب في «سيرة الإمام الأوزاعي».
الزركلي: الاعلام، ج 3، ص 198.

3 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 244.

4 ـ المصدر نفسه، ص 245.

5 ـ المصدر نفسه، ص 246.

6 ـ المصدر نفسه، ص 247.

كبير لهم في القاهرة.

وفي سنة 829هـ/ 1426م، أمر السلطان الأشرف برسباي ببناء سفينتين في بيروت، على أن تحضرا إلى مصر وتنضما إلى الأسطول المصري لغزو قبرص مباشرة هذه المرة دون المرور على الموانىء اللبنانية، كما حدث في المرتين السابقين. وأمر السلطان أن يشرف على بنائهما، شعبان اليغموري، وهو أحد الحجاب بدمشق. وقد تم بناؤهما على وجه السرعة، وأرسلتا إلى دمياط وفيهما ثلاثمائة رجل[1]، لتواكب الأسطول المصري في غزو جزيرة قبرص. لكن السفينتين الكبيرتين اللتين غادرتا بيروت تأخرتا في الوصول إلى دمياط بسبب الريح، ولم تشاركا في غزو قبرص التي دخلها السلطان الأشرف برسباي، وأسر ملكها جانوس ومعه ألوف الأسرى، لتدخل الحملة القاهرة في احتفال كبير[2].

وكذلك قام السلطان جقمق بحملات على جزيرة رودس، ومنها حملة سنة 846هـ/ 1443م، التي أقلعت من دمياط واتجهت نحو بيروت[3] وطرابلس، حيث انضمت إليها قوات مدن الساحل اللبناني، ولكن هذه الحملات لم تحقق فتح رودس كما حصل في قبرص[4].

8 ـ النظام الإداري والاقطاعي والقضائي في لبنان

(أ) لبنان يتبع نيابتي دمشق وطرابلس

قسم المماليك بلاد الشام إلى ستة أقسام تدعى نيابات، وتخضع للحكومة المركزية في القاهرة[5]، وهي: نيابة دمشق، نيابة حلب، نيابة طرابلس، نيابة حماه، نيابة صفد، ونيابة الكرك. وكانت بيروت والغرب والشوف وصيدا وجبل عامل والبقاع، تابعة لنيابة دمشق[6].

---

1 ـ صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص 249.
2 ـ المصدر نفسه، ص 245 ـ 247.
3 ـ العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية، ص 336 ـ 340.
4 ـ عصام شبارو: تاريخ المشرق العربي الاسلامي، ص 312.
5 ـ سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص 304.
6 ـ المرجع نفسه، ص 307.

وكان والي بيروت يتولى منصبه بموجب توقيع بولايته يصدر عن نائب السلطنة بدمشق، الذي يعتبر من أهم نواب السلطان، لأن نيابة دمشق كانت كبرى نيابات الشام في عصر المماليك، وقد أطلق عليها القلقشندي اسم «نيابة الشام» أو «مملكة الشام»[1]. وكان حاكم بيروت برتبة طبلخاناه[2]، والعادة أن يجري الاحتفال بتقليده أمرية الطبلخاناه في دمشق.

وأصبحت المرتفعات الشمالية في زغرتا وبشري، وسفوح وأعالي البترون وجبيل، فضلاً عن عكار والكورة، تابعة لنيابة طرابلس الممتدة من اللاذقية شمالاً حتى جسر المعاملتين جنوباً.

(ب) النظام الاقطاعي وتوزيع الأقليات الطائفية

بلغ النظام الاقطاعي ذروة تطوره زمن دولة المماليك التي ورثت الدولة الأيوبية في ملكها في مصر وبلاد الشام، وفي سياستها ونظمها.

اتسع النظام الاقطاعي، في بلاد الشام بما فيها لبنان، تدريجياً باتساع حركة الجهاد ضد الفرنج. ولم يضع حداً لتحول الكثير من الأراضي إلى اقطاعات عسكرية، سوى حرص بعض الحكام على وقف جهات لا يستهان بها على المدارس والزوايا والجوامع والبيمارستانات حتى تتمكن من أداء رسالتها. ومع ذلك فإن حياة الفلاح في جبل لبنان والبقاع وجبل عامل لا تختلف كثيراً عنها في سائر قرى بلاد الشام أو قرى مصر. فكان نصيب الفلاح اللبناني من النعم محدوداً في القرى الضيقة الطرق ذات المنازل المشيدة من الطين والآجر.

تأثر النظام الاقطاعي في لبنان، بكثرة العصبيات وتعددها، وبما كان لكل عصبية من تقاليد وعادات. ونتيجة لحروب المماليك ضد الفرنج وحملاتهم ضد الموارنة في المرتفعات الشمالية وضد الشيعة والنصيرية في كسروان، انتشر الاقطاع مع تغير جديد لوجود الطوائف المذهبية في الجبال.

---

1 ـ القلقشندي: صبح الأعشى، ج 12، ص 6.
2 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 36 ، 78 ،79.

لذلك، انعزل الموارنة في المرتفعات الشمالية الشرقية من جبل لبنان، وتحديداً في زغرتا وبشري وجبة بشري، وفي سفوح وأعالي البترون وجبيل، قبل أن تنزح مجموعات صغيرة منهم لتحل مكان الشيعة والنصيرية في كسروان.

وتوجه النصيريون من كسروان إلى طرابلس، قبل أن تتحول جبال العلويين في سوريا إلى المركز الرئيسي لتجمعهم. في حين لجأ شيعة كسروان إلى جزين والبقاع وبعلبك، مع استمرار جبل عامل كمركز رئيسي لتجمعهم.

أما الموحدون الدروز، فحافظوا على مناطق وجودهم، بفضل سياسة الأمراء التنوخيين وتعاونهم مع المماليك ضد الفرنج، فارتبطوا بمناطق الغرب وعاليه والشوف ووادي التيم. وقد تمكن التنوخيون (بنو بحتر) من تأسيس أول امارة اقطاعية في لبنان، ليمتد نفوذ الامارة التنوخية على طول الساحل من بيروت إلى صيدا[1]، وتضم أيضاً الشوف والغرب والمتن. وقد عهد المماليك إلى هذه الامارة حراسة بيروت وشواطئها منذ سنة 693هـ/ 1294م.

وكان التنوخيون (الأرسلانيون) ومركزهم قرب بيروت، موالين للمماليك واشتهروا بمواقفهم ضد الفرنج الأمر الذي جعلهم يظفرون برضاء سلاطين المماليك[1].

ومن الأسر الاقطاعية التي أخذت تظهر منذ عهد المماليك، آل معن الذين نزلوا الشوف، إثر الحملة الصليبية الأولى، وتحالفوا مع التنوخيين في قتال الفرنج. في حين سكن آل شهاب في وادي التيم.

وبرز آل حرفوش في بعلبك، مع الأمير علاء الدين بن حرفوش. في حين سكن بنو بشارة في المرتفعات جنوب لبنان، فعرفت هذه المناطق باسمهم «بلاد بشارة».

وفي الشمال، سكن أمراء بني سيفا في عكار، وينسبون إلى أحد المماليك الجراكسة ويدعى جمال الدين الملقب بسيفا.

---

1 ـ سعيد عاشور: مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك، ص 316.
2 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 218، 219.

وعندما يحتاج سلطان المماليك إلى قوة عسكرية تسانده، يطلب المساعدة من الولاة والأمراء بعد أن يرسل إليهم المراسيم. وكان الأمراء يستعينون بعشائر التركمان والأكراد، وبالمرتزقة من عامة الناس الذين يتحولون إلى مشاة سلاحهم الأقواس والسهام لدعم الفرسان.

وهذا التوزيع الطائفي في تكوين الاقطاعات اللبنانية، أدى إلى تمايز هذه الاقطاعات عن الاقطاعات الأخرى[1] في بلاد الشام عهد المماليك، ليظهر الطابع الطائفي عند تكوين الامارات الاقطاعية المذهبية في القرن الأخير من عهد المماليك، وليتكرس مع الدولة العثمانية.

(ج) انشاء البريد بين بيروت ودمشق

أنشأ المماليك البريد بين بيروت ودمشق، ومهمته نقل الأخبار على وجه السرعة، وجعلوا له محطات في الحصين (بين عاليه وبحمدون)، وفي قرية زبدل (في البقاع)، وفي خان ميسلون (في وادي الحرير)، ومنها إلى دمشق[2]. وذلك لتقوية العمليات الدفاعية وربط بيروت بدمشق.

كما استعملوا الحمام الزاجل، لنقل الأخبار في النهار[3]، بين بيروت ودمشق وبين بيروت وصيدا[4]. أما في الليل، فكانوا يشعلون النار في مكان في ظاهر بيروت، فتجاوبها نار في راس بيروت العتيقة (وهو موقع دير القلعة خارج قرية بيت مري من المتن الشمالي)، ومنه إلى جبل بوارش (جبل الكنيسة وتقع على سفحه قرية بوارج وكانت تعرف ببوارش)، ومنه إلى جبل يبوس (في سلسلة جبال لبنان الشرقية)، ومنه إلى جبل الصالحية (جبل قاسيون المطل على دمشق)، ومنه إلى قلعة دمشق[5]، حيث يصل الخبر.

---

1 ـ كمال الصليبي: منطلق تاريخ لبنان، ص 145 ـ 150.
2 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 35.
3 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 35.
اسطفان الدويهي: تاريخ الأزمنة، ص 276.
4 ـ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ صيدا، ص 163.
5 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 35.

فعندما هاجمت السفن الجنوية بيروت سنة 806هـ/ 1403م، أشعل المسلمون النار، إشارة لوصول الفرنج إلى بيروت، فوصلت النار بالتدريج في تلك الليلة إلى دمشق. وعلى الفور حضر نائب الشام إلى بيروت ومعه عساكره، في عشية ذلك اليوم.

(د) بيروت الميناء الأول وطرابلس الميناء الثاني في لبنان وبلاد الشام

أصبحت بيروت أيام المماليك، هي الميناء الرئيسي لبلاد الشام، وذلك بعد اضمحلال مدينة صيدا عمرانياً واقتصادياً في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وعندما زار طافور مدن الساحل، لم يذكر اسم صيدا، بل ذكر بيروت والرملة ويافا وصور وعسقلان وعكا[1].

واجتمع في بيروت، تجار دمشق وحلب وحماه وبعلبك، حاملين معهم أنواع السلع المشرقية. وفيها تعددت المراكز التجارية الأوروبية وقنصلياتهم، وكثر مجيء الأجانب إليها بانتظام، لبعدها عن السلطة المركزية في القاهرة.

وكانت طرابلس هي الميناء الثاني بعد بيروت. أما صيدا وصور وعكا وحيفا، فقد كانت أقل أهمية من بيروت وطرابلس، وقد انحصرت شهرة تلك الموانىء بتصدير القطن بوجه عام[2].

وأنشأ المماليك مؤسسات لتنشيط التجارة، وضعوها بتصرف التجار المسلمين، وعرفت بالوكالات والخانات والقيساريات. ونما عدد التجار الأوروبيين في طرابلس وبيروت التي أصبحت في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، «ملتقى شعوب البحر المتوسط وكنت تشاهد في بيروت مزيجاً يصعب وصفه من العمائم والطرابيش والكوفيات الحرير وأكسية وبرانس وقفاطين»[3].

---

1 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 32.
رحلة طافور، ص 53.
2 ـ عصام شبارو: تاريخ بيروت، ص 108.
7 ـ محمد كرد علي: خطط الشام، ج 4 ص 247، 248.

(هـ) النظام القضائي

كان المماليك شديدي التمسك بمذهب أهل السنة، الذي أخذ عاد يفرض وجوده. فقد شدَّد بعض سلاطين المماليك «بمنع أهل صيدا وبيروت وأعمالها من اعتقاد الرافضة والشيعة، وردعهم والرجوع إلى أهل السنة والجماعة، واعتقاد مذهب أهل الحق»[1]. وقد أفلح المماليك في ذلك، فحققوا انتصار مذهبهم ;السنّي+ الذي أصبح مذهب أهل المدن اللبنانية الساحلية[2]، وتراجعت المذاهب الاسلامية الأخرى وكذلك المذاهب المسيحية نحو الجبال تلوذ بسفوحها ووديانها[3].

وكان أهم تطور حدث في النظام القضائي في عهد المماليك، هو ما قام به السلطان الظاهر بيبرس سنة 665هـ/ 1266م، من تحريم أي مذهب، عدا المذاهب الأربعة (الحنفية، المالكية، الحنبلية، الشافعية). وعيّن أربعة من قضاة القضاة يمثلون المذاهب الأربعة، بعد أن كان الوضع منذ أيام صلاح الدين الأيوبي، يقتصر على قاضي قضاة واحد هو الشافعي. وأصبحت لا تقبل شهادة أحد، ولا يرشح لوظائف القضاء أو الخطابة أو الإمارة أو التدريس، إلا إذا كان من أتباع أحد هذه المذاهب الأربعة[4]. وكان يوجد في كل نيابة من نيابات الشام، أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة[5].

---

1 ـ القلقشندي: صبح الأعشى، ج 13، ص 14.
2 ـ صالح بن يحي: تاريخ بيروت، ص 35.
3 ـ المصدر نفسه، ص 195.
4 ـ المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج 4، ص 161.
السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1، ص 538 ـ 539.
5 ـ سعيد عاشور،: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص 307.

7 ـ انحياز لبنان إلى العثمانيين وهزيمة المماليك في موقعة مرج دابق (24 رجب 922هـ/ 24 آب 1516م)

تحكمت ثلاث قوى كبرى غير عربية في مصير الشرق العربي الاسلامي، مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وهي الدولة الصفوية «الشيعية» في ايران، والدولة العثمانية «السنيّة» في آسيا الصغرى وجنوب شرق أوروبا، والدولة المملوكية «السنية» في مصر وبلاد الشام[1] بما فيها لبنان. وانتهى هذا الصراع بانتصار الدولة العثمانية على الدولة الصفوية في موقعة جالديران في 3 رجب 920هـ/ 23 آب 1514م، وعلى دولة المماليك في موقعة مرج دابق شمال حلب[2] في 24 رجب 922هـ/ 24 آب 1516م حيث دخلوا بلاد الشام، وفي موقعة الريدانية[3] في 27 ذي الحجة 922هـ/ 22 كانون الثاني 1517م حيث دخلوا مصر، لتسقط على أيديهم دولة المماليك، بعد مقتل آخر سلاطينها طومان باي في 22 ربيع الأول 923 هـ/ 23 نيسان 1517م..

استقبلت مدن بلاد الشام، بما فيها المدن اللبنانية، السلطان العثماني سليم الأول كمنقذ لها من المماليك، فلم تبدِ أي مقاومة، وبالعكس، فإنها قامت بانتفاضات للقضاء على الحاميات المملوكية، فتم فتح أبواب القلاع والمدن أمامه، ليدخل دمشق في 11 رمضان 922هـ/ 9 تشرين الأول 1516م، وسار في شوارعها وسط احتفالات عظيمة. وفي دمشق استقبل السلطان سليم الأول وفود طرابلس وبيروت وصيدا، وأمراء جبل لبنان الذين انحازوا إليه[4].

وبذلك عاش لبنان، ومعه المشرق العربي الاسلامي، طيلة أربعة قرون متتالية

---

1 ـ عصام شبارو: تاريخ المشرق العربي الاسلامي، ص 317.

2 ـ ابن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج 3 ص 15، 30، 44. و ج 4 ص 145، 182، 191، 192، 229، 238، 256، 264، 265، 285، 308، 310، 355، 372، 380، 446، 448، 470، 471، 476. و ج 5 ص 44، 68، 69.

3 ـ ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج 5، ص 85، 121، 140، 142، 157.
ابن زنبل: فتوح مصر، ج 2، ص 169، 170، 183.

4 ـ ابن طولون: اعلام الورى بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، ص 319.

تحت حكم الدولة العثمانية (923 ـ 1337هـ/ 1517 ـ 1918م)، لتستمر سيطرة السلاطين غير العرب، بعد أن تحولت العاصمة لأول مرة في التاريخ العربي الإسلامي إلى مدينة غير عربية هي استانبول.

وبعد سقوط الدولة العثمانية سنة 1337هـ/ 1918م، لم تعد بلاد الشام (بما فيها لبنان)، تتبع عاصمة غير عربية هي استانبول، لأنها تحولت إلى أربعة اقطار عربية، ينعزل كل قطر منها في حدود خاصة به، وله عاصمته، فأصبحت بيروت عاصمة الجمهورية اللبنانية سنة 1926 وهي أول جمهورية في الوطن العربي، وأصبحت دمشق عاصمة سوريا، والقدس عاصمة فلسطين، وعمان عاصمة الأردن.

وبذلك عادت حاضرة الدولة الأموية دمشق لتصبح عاصمة لسوريا فقط، وعادت حاضرة الدولة العباسية بغداد لتصبح عاصمة العراق فقط، كما عادت القاهرة حاضرة الفاطميين والأيوبيين والمماليك لتصبح عاصمة لمصر فقط. واكتفت أول حاضرة في التاريخ العربي الإسلامي، وهي المدينة المنورة بأن تكون مدينة دينية يزورها المسلمون بعد مكة المكرمة، لأن المملكة العربية السعودية اختارت الرياض عاصمة لها.

الخاتمة

كان الفتح العربي الإسلامي للعراق وفارس وبلاد الشام ومصر، في العهد الراشدي (13 ـ 41هـ/ 634 ـ 661م)، نقطة تحول عظيمة في تاريخ لبنان الذي أصبح تابعاً لجند دمشق، بعد تقسيم بلاد الشام إلى أربع مناطق عسكرية (أجناد)، هي: دمشق وقنسرين وحمص والأردن.

وفي العهد الأموي (41 ـ 132هـ/ 661 ـ 750م) أصبحت دمشق في الداخل هي حاضرة الدولة، بينما تحول الساحل اللبناني مع الساحل المصري إلى قاعدة بحرية لمواجهة الأسطول البيزنطي في البحر المتوسط، في الوقت الذي اخذ فيه الطابع الإسلامي السنّي يطل على المدن اللبنانية الساحلية والبقاع، لينكفىء الموارنة والروم الأرثوذكس نحو المرتفعات الشمالية، في حين توطن الشيعة (المتاولة) والنصيريون (العلويون) في جبل عامل وكسروان، مع انتشار اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، وسيادتها في لبنان.

وفي العهد العباسي (132 ـ 360 هـ/ 570 ـ 968م)، نجح التنوخيون في الدفاع عن ساحل لبنان وضبط الأمور في الجبل المتاخم له، قبل أن تتأرجح المدن اللبنانية الساحلية بين سيطرة الدولة الطولونية (264 ـ 333 هـ/ 879 ـ 944م) وسيطرة الدولة الأخشيدية (333 ـ 360 هـ/ 944 ـ 968م).

وفي العهد الفاطمي (360 ـ 503هـ/ 970 ـ 1110م) برزت طائفة إسلامية جديدة مع الموحدين الدروز الذين انتشروا في الشوف وقرى الغرب وعالية والشويفات والمتن، وهاجر عدد منهم إلى جبل حوران جنوب دمشق، ليحمل اسم جبل الدروز. هذا في الوقت الذي انسلخت فيه العديد من المدن اللبنانية الساحلية عن الدولة الفاطمية،

حيث تأسست إمارة بني عقيل الشيعية في صور، لكنها لم تستمر أكثر من عشرين سنة (462 ـ 482 هـ/ 1070 ـ 1089م). كما تأسست إمارة بني عمار الشيعية أيضاً في طرابلس، لتستمر حوالى الأربعين سنة (462 ـ 503 هـ/ 1070 ـ 1109م).

كانت المدن اللبنانية الساحلية، مع بيت المقدس، تخضع للدولة الفاطمية، حين دخول الفرنج مع الحملة الصليبية الأولى (489 ـ 493 هـ/ 1096 ـ 1099م)، التي رافقها تأسيس إمارتي الرها وإنطاكية ومملكة بيت المقدس ثم كونتية طرابلس. وقد مهد ذلك، لسقوط بيروت سنة 503 هـ/ 1110م، وصيدا سنة 503هـ/ 1110م، وصور سنة 518 هـ/ 1124م، وتمت السيطرة الصليبية الكاملة على ساحل بلاد الشام من الإسكندرية شمالاً حتى غزة جنوباً، بما فيه الساحل اللبناني بأسره.

تأسست مملكة بيت المقدس وإمارتا الرها وإنطاكية وكونتية طرابلس، وسط إنقسام الأمراء المسلمين بين الخلافة العباسية السنّية في بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة. لكن المشرق العربي الإسلامي ما لبث أن أنجب ثلاثة من كبار القادة، هم: عماد الدين زنكي الذي استرجع الرها سنة 539هـ/ 1144م، وابنه نور الدين محمود الذي بدأ مسيرة الوحدة بين مصر وبلاد الشام، ليتعاون معه أمير الغرب كرامة بن بحتر ضد الفرنج، فأقره سنة 556هـ/ 1161م على قرى الغرب والقنيطرة وثعلبايا في البقاع وظهر حمار في وادي التيم وبرجا وبعاصير. هذا في الوقت الذي قدمت فيه موجات عربية جديدة. لتضاف إلى الموجات السابقة، فنزل بنو معن في الشوف أعقاب الحملة الصليبية الأولى، وكان لهم دور بارز في التصدي لها. كما قدم بنو شهاب من حوران إلى وادي التيم.

تمكن الناصر صلاح الديم الايوبي من القضاء على الخلافة الفاطمية سنة 567هـ/ 1171م، ليكمل مسيرة سيده نور الدين محمود، محققاً وحدة مصر وبلاد الشام، قبل أن يحقق النصر الكبير على الفرنج في معركة حطين سنة 583هـ/ 1187م، ويسترد القدس، ويحرر الشقيف وتبنين وصيدا وبيروت وجبيل. وبوفاة صلاح الدين الأيوبي سنة 594هـ/ 1198م، عاد الفرنج إلى بيروت وصيدا.

دخل لبنان مرحلة جديدة في عهد المماليك الذين حطمت انتصاراتهم معنويات الفرنج فجلوا نهائياً عن الساحل الشرقي للبحر المتوسط، بما فيه الساحل اللبناني،

سنة690 هـ/ 1291م، بعد زوال إماراتهم الصليبية في أنطاكية وطرابلس وعكا وحيفا وصيدا وصور وجبيل وبيروت، وضياع مملكة بين المقدس.

استمر لبنان تحت حكم المماليك، مدة قرنين وربع القرن (690ـ922هـ/ 1291ـ1516م)، بلغ النظام الإقطاعي خلالها ذروة تطوره، متاثراً بكثرة العصبيات وتعددها. فانعزل الموارنة في المرتفعات الشمالية الشرقية، وتحديداً في زغرتا وبشري وجبة بشري، وفي سفوح وأعالي البترون وجبيل، قبل أن تنزح مجموعات صغيرة منهم لتحل مكان الشيعة والنصيرية في كسروان. فنتيجة حملات المماليك، لجأ شيعة كسروان إلى جزين والبقاع وبعلبك، مع استمرار جبل عامل كمركز رئيسي لتجمعهم، بينما توجه النصيريون من كسروان إلى طرابلس، قبل أن تتحول جبال العلويين في سوريا إلى المركز الرئيسي لتجمعهم. أما الموحدون الدروز، فحافظوا على مناطق تواجدهم، بفضل إتباع الأمراء التنوخيين سياسة التعاون مع المماليك ضد الفرنج.

كان سقوط دولة المماليك على يد العثمانيين في موقعة مرج دابق سنة 922هـ/ 1516، حينما دخلوا بلاد الشام، إيذاناً بنهاية تاريخ لبنان في العصر الوسيط، ليدخل تحت حكم الدولة العثمانية طيلة أربعة قرون متتالية (922ـ1337هـ/ 1516ـ1918م).

الملاحق

1 ـ الخلفاء الراشدون (11 ـ 40هـ/ 632 ـ 660م)
2 ـ الخلفاء الأمويون (41 ـ 132هـ/ 661 ـ 750م)
3 ـ الخلفاء العباسيون (132 ـ 656هـ/ 750 ـ 1258م)
4 ـ الخلفاء الفاطميون (362 ـ 567هـ/ 973 ـ 1171م)
5 ـ الملوك الفرنج في بيت المقدس (493 ـ 583هـ/ 1099 ـ 1187م)
6 ـ السلاطين الأيوبيون (567 ـ 648هـ/ 1171 ـ 1250م)
7 ـ السلاطين المماليك (648 ـ 923هـ/ 1250 ـ 1517م).

ملحق رقم 1
الخلفاء الراشدون
(11 ـ 40هـ/ 632 ـ 660م)

1 ـ أبو بكر الصديق (13 ربيع الأول 11 ـ 22 جمادي الثاني 13هـ/ 632 ـ 634م)

2 ـ عمر بن الخطاب (22 جمادي الثاني 13 ـ 29 ذي الحجة 23 هـ/ 634 ـ 644م)

3 ـ عثمان بن أبي عفان (3 محرم 24 ـ 18 ذي الحجة 35هـ/ 644 ـ 655م)

4 ـ علي بن أبي طالب (ذي الحجة 35 ـ 17 رمضان 40هـ/ 655 ـ 660م)

ملحق رقم 2
الخلفاء الأمويون
(41 ـ 132هـ/ 661 ـ 750م)

(أ) البيت السفياني
(41 ـ 63هـ/ 661 ـ 683م)

1 ـ معاوية بن أبي سفيان (41 ـ 60هـ/ 661 ـ 680م)
2 ـ يزيد بن معاوية (60 ـ 63هـ/ 680 ـ 683م)
3 ـ معاوية «الثاني» بن يزيد (63هـ/ 683م)

(ب) البيت الأموي المرواني
(64 ـ 132هـ/ 684 ـ 750م)

1 ـ مروان بن الحكم (64 ـ 65هـ/ 684 ـ 685م)
2 ـ عبد الملك بن مروان (65 ـ 86هـ/ 685 ـ 705م)
3 ـ الوليد بن عبد الملك (86 ـ 96هـ/ 705 ـ 715م)
4 ـ سليمان بن عبد الملك (96 ـ 99هـ/ 715 ـ 717م)
5 ـ عمر بن عبد العزيز بن مروان (99 ـ 101هـ/ 717 ـ 720م)
6 ـ يزيد «الثاني» بن عبد الملك (101 ـ 105هـ/ 720 ـ 724م)
7 ـ هشام بن عبد الملك (105 ـ 125هـ/ 724 ـ 743م)
8 ـ الوليد «الثاني» بن يزيد «الثاني» (125 ـ 126هـ/ 743 ـ 744م)
9 ـ يزيد «الثالث» بن يزيد الثاني (126هـ/ 744م)
10 ـ مروان «الثاني» بن محمد بن مروان بن الحكم (127 ـ 132هـ/ 745 ـ 750م)

ملحق رقم 3
الخلفاء العباسيون
(132 ـ 656هـ/ 750 ـ 1258م)

1 ـ السفاح، أبو العباس عبد الله بن محمد (132هـ/ 750م)
2 ـ المنصور، أبو جعفر عبد الله بن محمد (136هـ/ 754م)
3 ـ المهدي، محمد بن عبدالله (158هـ/ 775م)
4 ـ الهادي، موسى بن محمد (169هـ/ 785م)
5 ـ الرشيد، هارون بن محمد (170هـ/ 786م)
6 ـ الأمين، محمد بن هارون (193هـ/ 809م)
7 ـ المأمون، عبد الله بن هارون (198هـ/ 813م)
8 ـ المعتصم بالله، محمد بن هارون (218هـ/ 833م)
9 ـ الواثق بالله، هارون بن محمد (227هـ/ 842م)
10 ـ المتوكل على الله، جعفر بن المعتصم (232هـ/ 847م)
11 ـ المنتصر بالله، محمد بن المتوكل (247هـ/ 861م)
12 ـ المستعين بالله، أحمد بن المعتصم (248هـ/ 862م)
13 ـ المعتز بالله، أحمد بن المتوكل (252هـ/ 866م)
14 ـ المهتدي بالله، محمد بن الواثق بن المعتصم (255هـ/ 869م)
15 ـ المعتمد على الله، أحمد بن المتوكل (256هـ/ 870م)
16 ـ المعتضد بالله، أحمد بن الموفق بن المتوكل (279هـ/ 892م)
17 ـ المكتفي بالله، علي بن المعتضد (289هـ/ 902م)
18 ـ المقتدر بالله، جعفر بن المعتضد (295هـ/ 908م)
19 ـ القاهر بالله، محمد بن المعتضد (320هـ/ 932م)
20 ـ الراضي بالله، أحمد بن المقتدر (322هـ/ 934م)

21 ـ المتقي لله، إبراهيم بن المقتدر (329هـ/ 940م)
22 ـ المستكفي بالله، عبد الله بن المكتفي (333هـ/ 944م)
23 ـ المطيع لله، الفضل بن المقتدر (334هـ/ 945م)
24 ـ الطائع لله، عبد الكريم بن المطيع (363هـ/ 973م)
25 ـ القادر بالله، أحمد بن اسحاق بن المقتدر (381هـ/ 991م)
26 ـ القائم بأمر الله، عبد الله بن القادر (422هـ/ 1031م)
27 ـ المقتدي بأمر الله، عبد الله بن محمد بن القائم (467هـ/ 1075م)
28 ـ المستظهر بالله، أحمد بن المقتدي (487هـ/ 1094م)
29 ـ المسترشد بالله، الفضل بن المستظهر (512هـ/ 1118م)
30 ـ الراشد بالله، محمد بن المسترشد (529هـ/ 1135م)
31 ـ المقتفي لأمر الله، محمد بن المستظهر (530هـ/ 1136م)
32 ـ المستنجد بالله، يوسف بن المقتفي (555هـ/ 1160م)
33 ـ المستضيء بأمر الله، الحسن بن المستنجد (566هـ/ 1171م)
34 ـ الناصر لدين الله، أحمد بن المستضيء (575هـ/ 1180م)
35 ـ الظاهر بأمر الله، محمد بن الناصر (622هـ/ 1225م)
36 ـ المستنصر بالله، المنصور بن الظاهر (623هـ/ 1226م)
37 ـ المستعصم بالله، عبد الله بن المستنصر (640 ـ 656هـ/ 1242 ـ 1258م)

ملحق رقم 4
الخلفاء الفاطميون
(362 ـ 567هـ/ 973 ـ 1171م)

1 ـ المعز لدين الله (362هـ/ 973م)

2 ـ العزيز بالله (365هـ/ 976م)

3 ـ الحاكم بأمر الله (386هـ/ 996م)

4 ـ الظاهر لإعزاز دين الله (411هـ/ 1020م)

5 ـ المستنصر بالله (427هـ/ 1035م)

6 ـ المستعلي بالله بن المستنصر (487هـ/ 1094م)

7 ـ الآمر بأحكام الله بن المستعلي (495هـ/ 1101م)

8 ـ الحافظ لدين الله بن محمد بن المستنصر (524هـ/ 1130م)

9 ـ الظافر بالله بن الحافظ (544هـ/ 1149م)

10 ـ الفائز بنصر الله بن الظافر (549هـ/ 1154م)

11 ـ العاضد لدين الله بن يوسف بن الحافظ (555هـ/ 1160م)

ملحق رقم 5
الملوك الفرنج في بيت المقدس
(493 ـ 583هـ/ 1099 ـ 1187م)

1 ـ غودفروا	(493هـ/ 1099م)
2 ـ بودوين الأول	(494 هـ/ 1100م)
3 ـ بودوين الثاني	(512هـ/ 1118م)
4 ـ فولك دو ألينو	(525هـ/ 1131م)
5 ـ بودوين الثالث	(537هـ/ 1142م)
6 ـ آموري الأول (آملريك)	(558هـ/ 1162م)
7 ـ بودوين الرابع «الأبرص»	(570هـ/ 1174م)
8 ـ بودوين الخامس	(579هـ/ 1183م)
9 ـ غي دو لوزينان	(583هـ/ 1185م)

ملحق رقم 6
السلاطين الأيوبيون
(567 ـ 648هـ/ 1171 ـ 1250م)

1 ـ الناصر صلاح الدين (567هـ/ 1171م)
2 ـ العزيز عثمان بن صلاح الدين (589هـ/ 1193م)
3 ـ المنصور محمد (595هـ/ 1198م)
4 ـ العادل سيف الدين (أخو صلاح الدين)(597هـ/ 1200م)
5 ـ الكامل محمد بن العادل (615هـ/ 1218م)
6 ـ العادل الثاني بن الكامل (636هـ/ 1238م)
7 ـ الصالح أيوب بن الكامل (638هـ/ 1240م)
8 ـ المعظم توران شاه بن الصالح (647هـ/ 1249م)
9 ـ الأشرف موسى (648هـ/ 1250م)

ملحق رقم 7
السلاطين المماليك
(648 ـ 923هـ/ 1250 ـ 1517م)

أ ـ دولة المماليك الأولى
(648 ـ 784هـ/ 1250 ـ 1382م)

1 ـ شجر الدر (648هـ/ 1250م)
2 ـ المعز، عز الدين أيبك (648هـ/ 1250م)
3 ـ المنصور نور الدين علي بن أيبك (655هـ/ 1257م)
4 ـ المظفر سيف الدين قطز (657هـ/ 1259م)
5 ـ الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري (658هـ/ 1260م)
6 ـ السعيد ناصر الدين محمد بركه خان بن بيبرس (678هـ/ 1279م)
7 ـ العادل بدر الدين سلامش بن بيبرس (678هـ/ 1279م)
8 ـ المنصور سيف الدين قلاوون (678هـ/ 1279م)
9 ـ الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاون (689هـ/ 1290م)
10 ـ الناصر ناصر الدين محمد بن قلاون (692هـ/ 1293م)
11 ـ العادل زين الدين كتبغا (694هـ/ 1294م)
12 ـ المنصور حسام الدين لاجين (696هـ/ 1296م)
13 ـ الناصر ناصر الدين محمد بن قلاون (المرة الثانية) (698هـ/ 1298م)
14 ـ المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير (708هـ/ 1308م)
15 ـ الناصر ناصر الدين محمد بن قلاون (المرة الثالثة) (709هـ/ 1309م)

أبناء الناصر محمد بن قلاون

1 ـ المنصور سيف أبو بكر	(742هـ/ 1341م)
2 ـ الأشرف علاء الدين كجك	(742هـ/ 1341م)
3 ـ الناصر شهاب الدين أحمد	(743هـ/ 1342م)
4 ـ الصالح عماد الدين إسماعيل	(743هـ/ 1342م)
5 ـ الكامل سيف الدين شعبان	(746هـ/ 1345م)
6 ـ المظفر زين الدين حاجي	(747هـ/ 1346م)
7 ـ الناصر ناصر الدين حسن	(748هـ/ 1347م)
8 ـ الصالح صلاح الدين صالح	(752هـ/ 1351م)
9 ـ الناصر ناصر الدين حسن (المرة الثانية)	(755هـ/ 1354م)

أحفاد الناصر محمد بن قلاون

1 ـ المنصور صلاح الدين محمد بن سيف الدين	(763هـ/ 1361م)
2 ـ الأشرف ناصر الدين شعبان بن حسين	(765هـ/ 1363م)
3 ـ المنصور علاء الدين علي بن شعبان	(778هـ/ 1376م)
4 ـ الصالح صلاح الدين حاجي بن شعبان	(783هـ/ 1381م)

(ب) دولة المماليك الثانية
(784 ـ 923هـ/ 1382 ـ 1517م)

1 ـ الظاهر سيف الدين برقوق	(784هـ/ 1382م)
2 ـ الصالح حاجي بن شعبان	(790هـ/ 1388م)
3 ـ الظاهر برقوق (للمرة الثانية)	(791هـ/ 1389م)

4 ـ الناصر فرج بن برقوق (801هـ/ 1398م)
5 ـ المنصور عبد العزيز بن برقوق (808هـ/ 1405م)
6 ـ الناصر فرج بن برقوق (للمرة الثانية) (808هـ/ 1405م)
7 ـ الخليفة المستعين العباسي (815 هـ/ 1412م)
8 ـ المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي (815هـ/ 1412م)
9 ـ المظفر أحمد بن شيخ (824هـ/ 1412م)
10 ـ الظاهر سيف الدين ططر (824هـ/ 1421م)
11 ـ محمد بن ططر (824هـ/ 1421م)
12 ـ الأشرف برسباي (825هـ/ 1422م)
13 ـ يوسف بن برسباي (841هـ/ 1437م)
14 ـ جقمق (842هـ/ 1438م)
15 ـ عثمان بن جقمق (857هـ/ 1453م)
16 ـ إينال (857هـ/ 1453م)
17 ـ أحمد بن إينال (865هـ/ 1460م)
18 ـ خشقدم (865هـ/ 1460م)
19 ـ بلباي المؤيدي (872هـ/ 1467م)
20 ـ تمربغا (873هـ/ 1468م)
21 ـ الأشرف قايتباي (873هـ/ 1468م)
22 ـ محمد بن قايتباي (902هـ/ 1496م)
23 ـ قانصوه خمسمائة (903هـ/ 1497م)
24 ـ محمد بن قايتباي (للمرة الثانية) (903هـ/ 1497م)
25 ـ قانصوه الأشرفي (904هـ/ 1498م)
26 ـ جانبلاط (906هـ/ 1500م)
27 ـ طومان باي الأول (907هـ/ 1501م)
28 ـ قانصوه الغوري (907هـ/ 1501م)
29 ـ طومان باي الثاني (922هـ/ 1516م)

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية

1 ـ ابن أبي الفضائل المفضل (ت 672هـ/ 1273م).
- **النهج السديد والدر الفريد في ما بعد تاريخ ابن العميد.** جزآن. بلوشيه، باريس (1911 ـ 1930).

2 ـ ابن الأثير عز الدين علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري (ت 630هـ/ 1233م)
- **الكامل في التاريخ** دار صادر، بيروت 1966م.
- **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل** تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، القاهرة 1963م.

3 ـ ابن إياس أبو البركات محمد بن أحمد (ت 930هـ/ 1523م).
- **بدائع الزهور في وقائع الدهور.** خمسة أجزاء القاهرة، الطبعة الثانية (1960ـ 1963م).

4 ـ ابن أيبك أبو بكر عبد الله الدواداري (ت 736هـ/ 1336م)
- **كنز الدرر وجامع الغرر. أو الدولة التركية** تحقيق أ ـ هارمان، القاهرة 1971م.

5 ـ ابن تغري بردي أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت 875هـ/ 1470م)
- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة.** ثلاثة عشر جزءاً. القاهرة 1929 ـ 1952م.

6 ـ ابن الجوزي أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد (ت 597هـ/ 1201م)

● **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**. عشرة أجزاء. حيد آباد الركن، الهند 1938 ـ 1939م.

7 ـ ابن حوقل أبو القاسم محمد بن علي النصيبي (ت 380هـ/ 990م).

● **صورة الأرض**

دار مكتبة الحياة، بيروت 1969.

8 ـ ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي (ت 681هـ/ 1281م).

● **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**. ثمانية أجزاء. تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1977 ـ 1978م.

9 ـ ابن زنبل أحمد بن أبي الحسن علي بن أحمد

● **واقعة السلطان سليم خان في فتوح مصر زمن السلطان الغوري وطومان باي**.

نسخة سنة 1113هـ/ 1701م. مخطوط رقم 824. الجامعة الأميركية، بيروت.

10 ـ ابن شداد بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع (ت632هـ/ 1234م)

● **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية المعروفة بسيرة صلاح الدين**. تحقيق جمال الدين الشيال. الدار المصرية، القاهرة 1964م.

11 ـ ابن شداد عز الدين محمد بن علي (ت 684هـ/ 1285م).

● **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة** جزآن. تحقيق سامي الدهان. المعهد الفرنسي للدراسات العربية. دمشق 1956م.

- **تاريخ الملك الظاهر.**
تحقيق أحمد حطيط. قيسبادن 1983م.

12 ـ ابن طولون
- شمس الدين محمد
أعلام الورى بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الكبرى. دمشق 1964.

13 ـ ابن عبد الحكم
عبد الرحمن بن عبد الله القرشي (القرن 3 هـ/ 9م)
- **فتوح مصر وأفريقية والأندلس**
تحقيق عبد المنعم عامر. القاهرة 1961.

14 ـ ابن عبد الظاهر
محي الدين عبد الله (ت 692هـ/ 1292م)
- **تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور.** تحقيق مراد كامل. القاهرة 1961.
- **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر.**
تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض 1976م.

15 ـ ابن العديم
كمال الدين عمر بن أحمد (ت660هـ/ 1261م)
- **زبدة الحلب من تاريخ حلب.** جزآن.
تحقيق سامي الدهان، دمشق 1954م.
أبو العباس أحمد بن محمد الدمشقي
(ت 854هـ/ 1450م)

16 ـ ابن عربشاه
أبو العباس احمد بن محمد الدمشقي (ت854هـ/ 1450م)
- **عجائب المقدور في أخبار تيمور**
تحقيق أحمد فايز الحمصي، مؤسسة الرسالة بيروت 1986.

17 ـ ابن عساكر
أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله
(ت571هـ/ 1175م).
- **تاريخ دمشق (سير الأعيان من أبناء دمشق)،**
سبعة أجزاء. دار المسيرة، بيروت 1979م.

18 ـ ابن العماد
- أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد الحنبلي

(ت1089هـ/ 1679م).

- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب. ثمانية** أجزاء. مكتبة القدسي. القاهرة 1931 ـ 1932م.

19 ـ ابن الفرات ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت 807هـ/ 1404م).

- **تاريخ ابن الفرات المعروف باسم الطريق الواضح المسلوك إلى معرفة تراجم الخلفاء والملوك**. تسعة أجزاء. تحقيق قسطنطين زريق. بيروت 1939 ـ 1942م.

20 ـ ابن القلانسي أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي التميمي (ت 555هـ/ 1160م)

- **ذيل تاريخ دمشق.** تحقيق سهيل زكار. دار حسان، دمشق 1983م.

21 ـ ابن كثير أبو الفداء عماد الدين اسماعيل بن عمر الدمشقي (ت 774هـ/ 1373م).

- **البداية والنهاية**. أربعة عشر جزءاً. مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الرابعة1981م.

22 ـ ابن منقذ اسامة أبو المظفر مجد الدين (ت 584هـ/ 1188م).

- **الاعتبار** نشر فيليب حتي. مكتبة جامعة برنستون 1930م.

23 ـ ابن ميسر محمد بن علي (ت 677هـ/ 1278م).

- **أخبار مصر**. جزآن. المعهد العلمي الفرنسي. القاهرة 1920م.

24 ـ ابن النديم أبو الفرج محمد بن اسحاق (ت 383هـ/ 992م).

- **الفهرست.** تحقيق رضا تجدد. طهران (لا.ت).

25 ـ ابن واصل أبو عبد الله جمال الدين محمد بن سالم الشافعي (ت 697هـ/ 1298م)

- **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب.** جزآن. تحقيق جمال الدين الشيال. جامعة القاهرة 1953 و 1957.

26 ـ ابن يحي صالح (ت 850هـ/ 1446م).

- **تاريخ بيروت.** تحقيق كمال الصليبي وفرنسيس هورس اليسوعي. بيروت 1969م.

27 ـ أبو شامة شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل الشافعي (ت 665هـ/ 1267م)

- **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية.** جزآن دار الجيل، بيروت (لا.ت).

28 ـ أبو الفداء عماد الدين اسماعيل بن علي بن محمود صاحب حماه (ت 732هـ/ 1332م)

- **المختصر في أخبار البشر.** طبعة الحسينية. القاهرة 1907م.

29 ـ الاصطخري إبراهيم بن محمد الفارسي (ت 340هـ/ 951م).

- **المسالك والممالك** ليدن 1927م.

30 ـ البلاذري أحمد بن يحي بن جابر (ت 279هـ/ 892م).

- **فتوح البلدان.** ثلاثة أجزاء. تحقيق صلاح الدين المنجد. القاهرة 1956 ـ 1957م.

31 ـ سبط ابن الجوزي شمس الدين بن قزاوغلي (ت 654هـ/ 1256م)

- **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان.** الجمعية التاريخية التركية. أنقرة 1968م.

32 ـ صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي (ت739هـ/ 1340م).
- **مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**
دار احياء الكتب العربية. القاهرة 1954.

33 ـ الطبري أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310هـ/ 923م).
- **تاريخ الرسل والملوك**، عشرة أجزاء.
تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. دار المعارف. القاهرة 1960م.

34 ـ عمارة اليمني أبو الحسن نجم الدين (ت 569هـ/ 1174م).
- **النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية**
باريس 1897م.

35 ـ القلقشندي أبو العباس أحمد (ت 821هـ/ 1418م).
- **صبح الأعشى في صناعة الانشا**. أربعة عشر جزءاً. القاهرة 1913 ـ 1917م.

36 ـ المقدسي شمس الدين أبو عبد الله محمد (ت 380هـ/ 990م).
- **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**.
بيروت 1987.

37 ـ المقريزي تقي الدين أحمد بن علي (ت 845هـ/ 1441م)
- **السلوك لمعرفة دول الملوك**.
تحقيق محمد مصطفى زيادة. القاهرة 1934 ـ 1939م.

38 ـ اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت 280هـ/ 892م)
- **تاريخ اليعقوبي**. جزآن.
دار صادر. بيروت 1960م.

ثانياً : المراجع العربية

1 ـ ابن سيرين حامد
- **مصادر العقيدة الدرزية**
دار لأجل المعرفة. ديار عقل لبنان 1985 .

2 ـ أمين أحمد
- **فجر الاسلام**
مكتبة النهضة العربية القاهرة. طبعة عاشرة1965 .

3 ـ الأنطاكي يحي بن سعيد
- **صلة كتاب سعيد بن بطريق**
بيروت 1909 .

4 ـ تدمري عمر عبد السلام
- **تاريخ طرابلس السياسي عبر العصور. ثلاثة أجزاء.** دار الايمان، طرابلس 1984 .

5 ـ حطيط أحمد
- **تاريخ لبنان الوسيط**
دراسة في مرحلة الصراع المملوكي الصليبي
(658ـ690هـ/ 1260ـ1291م)
دار البحار، بيروت 1986

6 ـ حمود سوزي
- **الفاطميون والزنكيون والأيوبيون والمماليك**
دار النهضة العربية، بيروت 2010 .

7 ـ حمزة نديم نايف
- **التنوخيون، أجداد الموحدين الدروز ودورهم في جبل لبنان.** دار النهار. بيروت 1984 .

8 ـ داغر يوسف
- **بطاركة الموارنة**
المطبعة الكاثوليكية. بيروت 1957 .

9 ـ الدويهي اسطفان
- **تاريخ الأزمنة**
تحقيق بطرس فهد. دار لحد خاطر. بيروت طبعة ثانية 1983.

10 ـ الزركلي خير الدين
الاعلام ثمانية أجزاء
دار العلم بيروت. طبعة خامسة 1980

11 ـ سالم عبد العزيز
- **دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الاسلامي.**
جامعة بيروت العربية، بيروت 1970.

12 ـ شبارو عصام
- **تاريخ بيروت**
دار مصباح الفكر، بيروت 1987.
- **تاريخ الدولة العربية الاسلامية الأولى**
(1 ـ 41هـ/ 623 ـ 661م).
دار النهضة العربية. بيروت، الطبعة الثالثة 1995.
- **تاريخ المشرق العربي الاسلامي**
دار الفكر اللبناني، بيروت 1999.

13 ـ الشدياق طنوس
- **أخبار الأعيان في جبل لبنان، جزآن**
منشورات الجامعة اللبنانية. بيروت 1970.

14 ـ الصباغ سعيد
- **جغرافية سورية العمومية**
مطبعة العرفان، صيدا 1924.

15 ـ الصليبي كمال
● **منطلق تاريخ لبنان**
بيروت 1979

16 ـ طرازي فيليب
● **أصدق ما كان عن تاريخ لبنان**
بيروت 1948.

17 ـ عاشور سعيد عبد الفتاح
● **مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك**
دار النهضة العربية، بيروت 1972.

18 ـ عثمان هاشم
● **تاريخ الشيعة في ساحل بلاد الشام**
منشورات الأعلمي، بيروت 1994.

19 ـ العريني السيد الباز
● **المغول**
بيروت 1967.

20 ـ قاسم طارق
● **تاريخ لبنان الوسيط**
بيروت 2007.

21 ـ قدورة زاهية
● **بحوث عربية واسلامية**
معهد الانماء العربي، بيروت 1984.

22 ـ قطار الياس
● **لبنان في القرون الوسطى ـ من الفتح العربي**
الاسلامي إلى الاحتلال الفرنجي بيروت 2003.

23 ـ كرد علي محمد
● **خطط الشام**. ستة أجزاء
مكتبة النوري. دمشق، الطبعة الثالثة 1983.

24 ـ كنعان داود
- **بيروت في التاريخ.**
بيروت 1963
25 ـ مزهر يوسف
- **تاريخ لبنان العام**
بيروت 1956
26 ـ مكارم سامي
- **أضواء على مسالك التوحيد «الدرزية».**
دار صادر. بيروت 1966.
27 ـ مكي محمد علي
- **لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني**
دار النهار بيروت 1977.
28 ـ النجار عبد الله
- **مذهب الدروز والتوحيد**
بيروت. طبعة ثانية 1967.
29 ـ الولي محمد طه
- **تاريخ المساجد والجوامع الشريفة في بيروت**
دار الكتب. بيروت 1973.
30 ـ ينى جرجي
- **تاريخ سوريا**
بيروت 1881.
31 ـ لجنة من الأدباء
- **لبنان مباحث علمية واجتماعية.** جزآن
منشورات الجامعة اللبنانية. بيروت 1969 ـ 1970.
32 ـ
- **مجموعة فتاوي لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية.**
الرياض 1961.

ثالثاً: المصادر والمراجع المعربة

1 ـ بولس جواد
- **تاريخ لبنان**
ترجمة جورج حاج. دار النهار. بيروت 1972.

2 ـ حتي فيليب
- **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**. جزآن
الجزء الأول، تعريب جورج حداد وعبد الكريم رانق. دار الثقافة بيروت 1958. الجزء الثاني، تعريب كمال اليازجي. دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية 1972.
- **لبنان في التاريخ**
تعريب أنيس فريحة، نيويورك بيروت 1959.

3 ـ رنسيمان ستيفن
- **تاريخ الحروب الصليبية**. ثلاثة أجزاء
تعريب السيد الباز العريني. دار الثقافة، بيروت طبعة ثانية 1981.

4 ـ الصوري وليم (ت 581هـ/ 1185م)
- **الحروب الصليبية**
تعريب حسن جشي، الهيئة المصرية العامة القاهرة، 1992.

5 ـ ناصر خسرو (ت 481هـ/ 1088م).
- **سفر نامة**
نقله عن الفارسية إلى العربية يحيى خشاب القاهرة ـ 1946.

الفهرس
لبنان في العصر الوسيط
(13 ـ 922هـ/ 634 ـ 1516م)

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الخرائط